



عمر فاخوري

أديب الإبداع والجمال

بقلم: ودار سكاكيني



أديب الإبداع والجمال

بقلم: ودار سكاكيني



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الاول

منبت عمر وأسرته

أنبتت بيروت فتاها (عمر فاخوري) ١٨٩٥ م ، وكان لهذه العريقة في حضارتها وثقافتها - الجائمة بدلال واعتزاز على الحوض الأبيض - أثر عميق في حياة عمر وسيرته وأدبه ، مل من البحر عمقا وانطلاقا ، ومن الجبل الملهم الذي ترتفع وتسطع وتمتد سفوحه نضرة وقوة وتساميا ، فمن دأب لبنان تنص نوابغه بطوابع من صينعه وابداعه ، وأن يعدهم لأيام وأحداث طارئة ، فاذا ضاق على نفوسهم الكبيرة وطموحهم فلتوا بكفاحهم وآمالهم الى أقصى الأرض ، لكن قلوبهم الممتلئة والحنين تبقى عالقة بتراب الوطن وطبيعته وتراثه .

وقد عاش (عمر فاخوري) في حماه منذ أشرف هذا العصر الم بكل ما فيه من تبديل وتعديل في مظاهره وأطواره ، ومن الحياة فيه وملابسات الفكر والسياسة ، فرافق عمر مدينته بما طرأ عليها من تغير وتجدد وازدياد في العمران والسكان ، عمر من الحى البيروتى القديم لهجته وحماسته ، وكان يرى ملتقى الشرق بالغرب ، فالبحر أمامه يرفده بالحضارة الغربية ،

الحديث ، وقد وجد عمر نفسه منذ تفتح وعيه وصباه أنه يعيش في مدينة العلم والعلماء ، فان فيها جامعتين : اليسوعية والأمريكية ، وعديدا من المعاهد والمدارس ، أقامتها همم الرواد والمفكرين من المصلحين السابقين، فيتوافد عليها في الساحل والجبل افراد وأفواج من طلاب الثقافة العربية والغربية والاختصاص بناحية من نواحي العلم والفنون ، فكان عمر على الحداثة وفي قوة الشباب عالق النظر والفكر بما نشأ في مدينته من حركات تحررية وحضارية ، تتبعها في أسبابها وأطوارها ، وشارك فيما وافق أشواقه ومنازعه في تلك الحركات والانتفاضات .

وإذا كان علماء الاجتماع يجعلون للبيئة والنشأة الأثر الأول في تكوين الشخصية ، فان الدراسات الأدبية والجامعية حتى المتطرفة منها على أيدي (ايليوت) وأمثاله لم تستطع أن تزحزح نظريات (نين) عن مكانتها العلمية والتجريبية ، فعمر فاخوري اذا درسناه من هذه الناحية ظهر لنا كأنه درحة نبتت صغيرة، ثم انبسطت فروعها وامتدت ظلالها ، ولا يشعر بالنبت البيروتي وتأثير البيئة في ذويها وساكنيها الا من استوطن بيروت ولا بس حياتها وطبيعتها وبخاصة بيروت القديمة في أحيائها وشوارعها ، وفي تقاليدها وهمومها ، فان لها طابعا خاصا لا يزال منسجبا عليها حتى اليوم ، ولعل ما يمثل هذا الطابع في السلوك والمعيشة واللهجة هو الاعتداد بالذات والشجاعة والنخوة الوطنية وتقاليد الحى وزعامته ، ولقد يمر المار فبقرا لافتات على أبواب الدكاكين أو على الحيطان ، فيها الآيات والأمثال التي تدعو للمروءة والانسانية ، والحفاظ على الشهامة والكرامة .

ولم تستطع الحضارة في هجماتها ونفوذها أن تنتزع من طبيعة الشعب هذه السجايا ، ولم تكن بيروت وحدها هي المتسمة بهذه المياسم ، فان سكان الساحل والجبل قد طبعتهم الأرض والسماء بهذه الطباع وفتحت بيروت صدرها لمن حملوا لها من الجبل مزاياء

فى المعرفة والأءب ، وفى البطولة والكفاح ، وبنفءوا المواهب فىها
بنفءاء من منابئه الاءى لا ءفى .

وعلى مقدار الأصالة الطباءىة فى البىئة والأسرة يعىش المرء
فى هءه الءنىا مصقولا بءربىة منزلىة وقومىة لا ءؤذىها الءواهى ،
ولا ءنال منها العءراء والصءماء ، وعمر فاءورى الءى ءمع الأصالة
البىروءىة والءصال اللبناىة كان لاىءرى أن الأءار أراءء أن ءءل
منه أءىبا مباءا وراءءا فى الءرىة للأمة العربىة ، فسار فى ءىار القءر
والزمن ، ولم ءسءط ءقالىء الأسرة أن ءقف ءون مسىره فىما
أراءء .

وكان من عاءة الأسرة البىروءىة فى الربع الأول من هءا العصر
أن يعء الآباء أبناءهم على عرارهم لىءملوا مسىراءهم فى الءرفة أو
الوظىفة ، وفى المعىشة أو ءءارة ، ولو بلغوا ءءلیم الءامعى ،
وأءوا مواهب لم ءءفءح فىمن سباءهم من الأهل والأقرباء .

وكان أبو عمر فاءورى عبء الرءمن بن عبء الباسط وسطا
من ءءار بىروء القءىمة ، واذا ءكرنا ءءارة فىها باءراء الى الءواطر
صور ومآءر فى الأعمال الءرة الاءى آءرها ءووها على الوظىفة ،
وكانء من ءوىها مؤازرة قومىة فى بناء ءربىة وءءلیم لمءءلف
الفءاء والبىءاء فى بىروء .

وقء مرء عصور على هءه المءىنة الءضارىة ءءارىة منذ الءكم
ءركى الى الاءءاء الفرنسى ، كان البىروءى منها اذا ءعاطى البىع
والشاء قانعا أو طامعا « ملكا على عرشه » كما قال الءاىظ « یسعى
الى ءوو البىاءاء بأنواع الطاءاء » وىءنفس الءرىة فى بءبوءة
وطمأنىة ، وقل فى ءءار من أهلها من لم یءعلم وىءفهم الءىاة
وما یطراء علیها فىءسن الأخء والعطاء بالمرانة والمراس ، وكان اذا
ءءقم ءااطب لءساء فضل أهلها ءءارء على الموظف ...

وما كنت بسبیل هءا الكلام لولا أن منبء عمر ینءمى الى

التجارة أولا ثم الى الافتاء والقضاء على ترادف الأعوام ، وقد عاش
عمر في بيئته منظويا على سجيته وحقيقته في الشباب ، مترصد
السوانح للانطلاق ، وما كان أشق على أبيه عبد الرحمن أن يرى
ولده عمر متبرما لا يألف التجارة ولا يرضى بمزاولتها معاونا
ومتمرسا قبل أن يحل محله في الدكان ، وقد جرب في صباه كرها
البيع حتى فر منه لأن التجارة تخالف طبعه ومزاجه ، فانصرف الى
المدرسة التي كانت تعده لما سائر هواه وما ترتقب منه الأيام .

وكان ذوو التجارة القديمة في بيروت كأمثالهم في دمشق
من أهل العلم والدين على الاصطلاح القديم ، وبينهم ذوو العمائم
انصفر « الأغباني » الذين لم تشغلهم أعمالهم اليومية عن موارد
العلم في بيوت المشايخ من الفقهاء والمفكرين ، وما كانت تخلو منازل
هؤلاء من خزائن الكتب الموروثة والمخطوطة ، وأبو عمر فاخوري
التاجر المتواضع كان من الأتقياء وأهل الافتاء ود لو أن ابنه عمر
يعيد سيرة جده مفتى بيروت ، لكن عمر ما استساع ثقافة الجدود ،
فان روح العصر كانت تحفره لما خلق له في الحياة الفكرية والوطنية ،
ولكم عبر عمر في مذكراته وهو طالب متفتح الوعى والذكاء والشباب
عن أسفه لتعنت والديه في تربيته واعداده لمستقبله وعن ضيقه
بالقيود التي فرضت عليه ، ومنها حدود السهر الا مع كتبه وفي
منزله ، وكان عمر الطالب الظمآن يؤثر السهر مع رفاقه ، فعد تشدد
والديه تعسفا واجحافا بحريته ، وأن والده لا يدرك أمرا مما كان
يشغل باله ، ولا يعبأ بشيء من ذلك ، وكان أبوه أحيانا يهدده
ويتوعده فيزداد عمر سخطا صامتا ويعزو ما يعتريه من سوداوية
المزاج الى حدة في طبع أبيه ، لكنه كان يكسرهما بالصمت والصبر ،
وأبوه نفسه علمه الصبر ، الصبر العملى ، فذكر عمر في مقال عن
ذكرياته : أن والده عبد الرحمن فاخوري كان يعرف مدرستين
تعلمان الصبر لا ثالثة لهما : هناك مدرسة الصبر العليا ، وهو دكان

الحلاق الثرثار فى الصيف ، بين موسى مسئلة وذباب ملحاح ،
وهذاك أيضا مدرسة الصبر الابتدائية ، وهو صيد السمك بالصنارة
أيام النحاس التى لا تعرف الا بالتجربة ، وبعد فوات الاوان ، وبعده
لهذا ، كى يعنى الصبر . كان يرسلنى وقتا بعد وقت ، لى مدرسته
الابتدائية ، فيأذن لى بمرافقه جارنا الصياد الى مقر عمله ، على
الصخرة القائمة فى أقصى الميناء القديم ، عند فكها الشرقى . كنت
أجلس ثمة ساعات طويلا ، كالصنم لا حراك به ، مخافة ان يطرد ظلى
على صفحة الماء سمكه تكاد لسرعه ألف والدوران حول الصناره
اللدود ، أن تكون وهمية ، وكان صاحبي لا ينبس ببنت شفة كأن
الصمت فيه طبيعة ثانية ، ما خلا كلمات غير نظيفة كان يرسلها
بدون تحفظ كلما أكلت الطعام سمكه خبيثه ، وألحقت بصنارته
الحرفاء اهانة من ذلك النوع الذى لا يغسل عاره الا الخضم
الفسيح ، والجزاء الحق من جنس العمل . . وكان الصياد اذا
لزمه النحاس مدة ، يضيق بى ذرعا فيتململ فوق صخرته ،
ثم يرمقنى بالنظر الشرر ، ثم ينتهى أمره بأن يلقي على درسا مطولا
فى محبة الأهل وذوى القربى ورفاق اللعب ، قائلا بحدة متصاعدة:
« ألم تشفق الى أمك ؟ أليس فى الحى أولاد يلعبون ؟ ألا تذهب
للمدرسة ؟ لله درك ، ما أعظم صبرك ! ولا يكف عن السؤال ، حتى
يرانى ابتعدت عنه ، وقد فهمت من ذلك الدرس القاسى أن الصياد
الحائب يريد أن يقول شيئا واحدا فيه جواب على تلك الأسئلة
. . يريد أن يقول لى بصراحة « يا وجه النحاس ! لكن كنت أثار
لنفسى ، بأن أدعوه فى سرى : « زريق السماك » الاسم الذى كان
أبى يسميه به فيما بيننا ضاحكا . . على أنى لا أعرف له ، فى الحقيقة ،
اسما آخر . . وظللت زمنا أتساءل عن أصل هذه التسمية ، ثم
علمت أن « زريقا السماك » هو من أبطال سيرة على الزبيق المصرى .
فقد كان أبى رحمه الله ، مولعا بأن يخلع على نفر من معارفه أمثال

تلك الأسماء المستعارة من قصص العرب وتاريخهم ، فيضفى على
أشخاصهم المبتذلة ، حلة أسطورية .

لقد تصرمت ، منذ ذاك العهد ، أعوام وأعوام ، وما انفك
ال عمران يطرد الصياد الشيخ وقصبته الحرقاء ، من صخرة الى صخرة
على ساحل هذه المدينة ، وجدته آخر مرة ، على صخرة فى الجون
الصغير المعروف بعين المريسة (١) ، فى ظل المسجد والدور المحيطة
به ، لست أزعم أن أستاذى القديم أهل وسهل اذ رآنى ، لا . لكنه
استقبلنى ، والحق يقال ، بصبر جميل . . . وكان أول ما ابتدرنى
به قوله : « زريق السماك ؟ . . . رحم الله أباك . . » واتبع بما يشبه
الابتسامة ، مكشرا عن فم أعزل من كل سلاح .

قلت له : عفا الله عما مضى . . . أما الآن . . . وحدثته بما كان
من أمرى مع الجاحظ ، وكيف يتهددنى بمصطبة التشهير ، لأنى فى
زعمه أعاشر السماكين وأخذ عنهم الأخبار ، فأحشو بها خطى
ورسائلى

فنظر الى زريق السماك بين مصدق ومكذب ، لكنه لم يتكلف
عناء تفكير طويل ، كى يفهم ما ليس يعنيه ، قال لى مختصرا ، قاطعا
كل طريق : والآن ماذا تريد منى ، وما شأنى بالجاحظ كما تسميه
أو بمصطبته ؟ وما يهمنى من خطبك ورسائلك ؟ أليس لك غير هذا
العمل ؟ . . . على أن جاحظك لا يحدثنى بخير ، فلعله من طبقة زريق
السماك - رحم الله أباك . . .

وكأن أبا عمر قد ألهم بشعوره وتديره ، بأن مدرسة الصبر
هذه ، قد تنفع ولده فى مستقبل حياته ، فكان يسمح له بمرافقة
جاره صياد السمك الى الصخرة القائمة فى الميناء البيروتى القديم ،
لعله يتعلم من صاحبه الصمت والترقب ، وكانتا من سجايا عمر ،
ومعاودة التجربة والكرة بعد الحيبة والبلغته ، أو ليصرف ابنه عن

(١) فى رأس بيروت .

رفاق اللعب فى الحى ، فكان عمر فى حادثته يجد متعة فى مرافقة الصياد والجلوس ساكنا ساعات طوالا متأملا فى بربرة الصياد وتأفقه كلما أكلت الطعم من صنارته سسمكة خبيثة وتفلتت من شباكها بسهولة .

ولا ريب فى أن لهذه المدرسة العملية وتجاربها فى نشأة عمر أثرا فى سيطرة الصمت على مزاجه السوداءى الموروث كلما فاجأته صدمة فى حياته فيحاورها فى سره ويتلقاها بينه وبين نفسه بفلسفه عمرية فيها الاستخفاف والسخرية أو تلقاء صحبة بدعابة يديرها على نفسه أو يرددها الى الحياة وطبيعة العصر .

واذا عددنا المؤثرات فى تربية عمر ونظرته للحياة منذ نشأ بين بيته ومدرسته عدنا الى ما كتب عمر بقلمه فى مذكراته وهو طالب متفتح الوعى والشباب ، وحياتى فى هذه الأثناء قاحلة عليها غبرة ، فيها غث وبارد وجامد ، مظلمة لا تبدو فى أفقها الا أنوار شاحبة .

وفى سطور غير هذه قال عمر : « نفسى نبتة جافة لا يجرى ماء الحياة فيها ، عقيمة من الزهر والثمر والطيب كالبادية التى أنبتتها .. » حتى اذا عرف عمر الصداقة ولقى الصديق انتعشت نفسه كما قال بسلسل صاف رقراق .

ويلوح لنا أن صرخة الشباب فى أغواره كانت ضائعة لا يجد فى المنزل والمدرسة ما يهدد قلقه وشعوره بنفسه ، اذ كان طموحا غير صريح ، ولا يرى فى أفقه الا أنوارا شاحبة ، فلما دخلت الصداقة حياته كما دخلتها فى مطالع صباه اليقظة العربية ودبت فى لحمه ودمه وعانقت وجدانه وإيمانه أحس عمر أنه حى فى الصداقة وهى حية فيه ، فطراً على حياته عنصر جديد شبه شعوره اذ ذاك بقطعة من الموسيقى الهادئة ، لا تباغته منها هبات عنيفة فى سكون الليل .. فكان غناء يصدر عن نفسه ولا نغم يرد اليها .

ولم يلبث عمر أن داخله احساس القلق فى تطلعه الى حقيقة الصداقة ، فيمن اختارهم أصدقاء فرافق احساسه الأول حذر وارتياح ، وهمته فيهما أفكار فلسفية متأثرة بآراء المتشائمين والناقمين فى الحياة ، وكان يقرأ عمر فى مستهل شبابه نيتشه وشوبنهاور وغيرهما من فلاسفة السخط والتمرد ، وكانت هذه الفلسفة القائمة من ظواهر العصر ، لكن رصانته العميقة والتزامه الصمت فى همومه المبكرة كانا يعلنانه بالصبر وكظم الغيظ حتى يتحقق له البعاد عما كان فيه من حيرة واضطراب .

وكانت أسرة عمر لا تنكر غلاب طموحه فيسرت له السفر الى باريس لاكمال دراسته وشمله أحد أعمامه بالمعونة ، على أن يعود باجازه الحقوق ضمانه لقدمه فى المجد الأدبى والعيش الرغيد . ومن الجدير بالذكر أن أسرة عمر العريقة فى بيروتيتها لم تكن محصورة فى دائرة التجارة والقضاة ، فان تطور العصر والمجتمع جعلها تنطلق الى مجالات علمية وفنية ، فبرز منها رائد القومية والمقاصد الخيرية محمد فاخورى الذى أنقذ عمر فى بوارى حماسه وتفكيره من براثن الحكم الغادر بالشباب العربى ، ومن رجالها فى الحقوق والرياضيات أخوا عمر وجيه ومواهب ، وقد سبقهما الى الأدب والبيان رائف فاخورى الكاتب البليغ الذى أنشأ قصصا مسرحية قبل أن يشيع فنهما فى بلاده ، ويبدو أنها بقيت مطوية بعد تمثيلها فى بيروت وطرابلس .

ومن فضليات هذه الأسرة فى المنازل والمجتمع كانت يسر فاخورى المعهن اسما وأبعدهن أثرا وذكرى فى الثقافة والتربية القومية واعداد الجيل الصاعد من فتيات الوطن للحياة اللائقة الفاضلة .

ملاح

من هيئته وخصاله

كان (عمر فاخوري) طويلا نحيلًا شابًا وكهلا ينوء غيره بما حمل من المواهب والخطوب ، لكنه كان رجلا في الرجال ، وقد أوتى النفس الكبيرة والشخصية الجذابة ، ولم يستطع هزال جسمه أن يطغى على روحه وطموحه ، فعاش هماما مكافحا يغالب البلاء ، وكانت العافية الفكرية والبصيرة الملهمة تشيعان في حياته قوة لا يأبه معها لهزال أو اعتلال .

فاذا تمثلناه اليوم نحن الذين عرفناه في مرآة الحاطر وملامح الصورة ، لاحت لنا سمرة وجهه في جلد التصق لحمه بعظمه ، وتألقت من خلف نظارتيه عينان سوداوان تشعان بذكاء حاد ينساب وراء المنظور ، وعلى الرغم من قسّمات وجهه والوقار في طلعتة فان ابتسامته لم تكن تفارق خديه الغائرين وشفتيه المفترتين تارة عن براءة طفل أو عن حنكة فيلسوف ، وقد علت أنامله صفرة من كثرة التدخين ، اذ كانت اللفافة سلواه في عزلته وبلواه ، وفي مشاغله ومعاناته ، فرافقه حتى فارق الدنيا ، وقد بكر عليه الشيب ، فلما سأله صديقه الشاعر صلاح اللباييدي ماذا دهاك ؟ أجاب عمر :

— هذا جزاء من يعرض عقله على الناس . . .

وفي أواخر عمره الذي لم يكن طويلا جلل رأسه شيب ناصع غير مخضوب ولا خفيف ، فاذا جاء الشتاء غطاه في يديه وقاية من البرد وعلق عصاه في ساعده ، وقل أن خلا جيبه أو تحت ابطه من جريدة أو كتاب .

ولا يحسبن القاريء أن وصف الصورة الظاهرة شيء غريب على عمر فاخوري الأديب ، فانه كان مصورا بالقلم ، وسطوره البليغه ماجت بالمعاني والخواطر كما تموج الألواح الفنية فى خطوطها وألوانها .

ولقد أتقن عمر فن التعبير عن ملامح الأشياء والأحياء وكأنه يصور بالريشة والألوان ، وبعد أن يتناول الظاهر يتغلغل فى الباطن ويرتد الى قلمه وبيانه تحليلا وتأويلا ، حاملا فيهما قيما جمالية متوهجة بالحياة والابتكار ، قائمة على الأصالة والجزالة فى الاداء والتفكير .

وكان عمر فاخوري الأديب المرموق يركب الترام فى طريقه الى الوظيفة أو الفسحة على شاطئ البحر فى رأس بيروت ، ولا يعبا بازدحام الناس والسلال الممتلئة بالفاكهة والبقول ، واذا مشى فى الشارع مضى مهرولا وكأنه يستبق خطاه الى موعد مضروب ، وكذلك كان من الزمن والمحن يضربان لعمر فاخوري كف ميعاد كما قال الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد ، فاذا صادفك فى طريقه وكان يعرفك تريت وشاعت البشاشة فى وجهه فأقبل عليك بالتحية وفيض المودة ، واذا دخلت مجلسه وقف محتفيا حتى تجلس فيقعد كأنه تلميذ بين يدي أستاذه ، وكم من أناس اذا منوا على قادم بتحية فى مجلسهم نهضوا ربع نهضة وتناولوا السلام بطرف الشفة أو بهز الرأس ، وهؤلاء كان يراهم عمر فاخوري شخوصا من ورق .

على أن تواضع عمر فاخوري وهو فى مظهره الأريستقراطى وثقافته الفنية والفكرية ما زاده الا رفعة فى أعين الناس ، الأصدقاء منهم والأعداء على سواء ، وكم فارقه صديق غاضبا فاذا أصبح بادر اليه راضيا ، ودخل حجرته بغتة فيضحك عمر ويرحب بصاحبه الذى خرج من عنده حردان ، وتلمع عيناه من البشاشة والسعادة وهو يقرأ على صديقه آخر نتاج بين يديه ، فاذا أبدى زائره اعجابا

طوى عمر أوراقه مستهزئاً بما كتب ، لأنه كان يكابد العناء وهو يعد مقاله أو يعبر عن خواطره ، مهتما بالصقل والتنقيح لا تكلفاً وتقيداً بل للاتفاق . فالصنعة الأدبية ما كانت لترضى عند عمر بالبصيرة الملهمة والأسلوب المطبوع ، والسهولة القريبة فى دقة التصوير والتعبير الذين يتجلمان فى الابداع .

وينظر عمر الى صديقه محبى الدين النصولى (١) وهو يستزيده مما قرأ قائلاً : انك يا صاحبي أصغيت لى فضلاً منك وتادباً . . . ان هذا الذى قرأته ليس بالأدب ، ان الادب هو الذى يخلد وهو الذى ينقل الى جميع اللغات فيقبل عليه الناس من كل لون ودين .

ولا أنسى جلسة لعمر فاخورى رأيته فيها مع قرينى المحاسنى قبل أن يعاوده المرض ، كان متربعا كأنه الكاتب المصرى المنحوت من الحجر وقد لاح عمر فى طلعة هزيلة يرتسم على ملامحها المتغضنة وجه غاندى ، وكنا نتمثل زعيم الهند فى أشباهه من العرب ، وكان عمر يحبه ويرضيه أن يشبه بهذا الزعيم ، ولولا شعره الشائب النابت على رأسه كأعواد السنابل وما ضاق على صدره وانعقد فى نطاقه من مخطط الثياب لزعمت فيه تناسخ الروح الكبرى فى « المهاتما » الذى كتب عنه عمر فاخورى مقالات ونقل الى العربية فى سيرته كتاباً وكأنما أحس فى نفسه مسرى التناظر ووجد فى طبعه النسخة الثانية من طبعة الخالق .

حلفنا على عمر بأن يبقى فى جلسته متربعا اذا كان مستريحاً ولا يغير رداءه فقد تحير وكرر اعتذاره وترحيبه ، وكان كلبه السلوقي يعس بين المقاعد فيقصيه عنا كلما اقترب (ونبح) ، وأحب عمر أن يكرمنا بفصل من روايته التى كان يكتبها « حنا الميت » فسحب دفترنا من تحت المتكأ وقرأ صفحات من الرواية بلهجته البيروتية

(١) الرسالة اللبنانية عام ١٩٥٦ .

المستحبة ، ولا أدري كيف انساق بالى وخيالى مع قراءة عمر المعبرة المؤثرة حين وصف جنازة « حنا الميت » وكان حنا نفسه ماشيا وراءها مع المشيعين ينتزع نعليه من الأرض وهو سادر فى صمته محنى الرأس .

وكم أسفت لأن عمر الروانى فارق الحياة التى أحبها دون أن يكمل طرفته الرائعة « حنا الميت » ولا ندري الى أى مدى فى ابداعه كان بطاقته تحقيقه لهذا الفن فى أدبنا الحديث .

وقد عرف أصدقاء عمر من سجاياه فنين اثنين لازماه فى حياته وهما دقة الانصات والاصغاء ، فهو يستمع أكثر مما يتكلم ، وإذا تكلم لم يكن يخلو حديثه من فكرة حرة أو سخرية مرة ، ما أشد شبهه بحكماء الاغريق الذين كانوا يقفون حياتهم على الجدل والحوار ، وكانت الأكاديمية فى أثينا موضع تفكيرهم وثقافتهم ، لكنهم كانوا جوالين متنقلين يشيعون حكمتهم فى الدروب والأسواق .

وكذلك كان عمر فاخورى ذا حكمة وروية : وما كانت حكمته تدريسية نظامية وانما كانت موهبة وفیضا من تجارب الحياة والثقافة ، وقد ربط القدر بين خصاله وفعاله برباط وثيق ، فكان كريم المعرفة والأدب ، كريم اليد والعطاء يؤثر صديقه على نفسه اذا ضاق به الزمن فيسعه بما يتيسر له ، ولم يؤثر عنه انه ادخر مالا أو وفر معاشا ، فهو كساب وهاب كما تقول العامة ، ولكم جاءه المساء وجيوه ملأى فاذا أصبح كانت فارغة لا تشكو لأنها سترتد عند المساء ملأى ، ولو شاء عمر فاخورى أن يجمع مالا لرفع العمائر وابتاع الأصوات وجمع الغلات ، لكنه مشى مع طبعه وخصاله فأثر الأدب فنا وعملا ، وعاش للحياة الفكرية موهوبا واهبا ، حتى تعلق بالشعب وانصرف الى السياسة محاولا أن يجربها من غير ثمن الا المودة والحرية ، ولم يكن يعلم أن السياسة تحزن وتحرد فى بلادنا العربية اذا لم يطعمها صاحبها ، وقد تنفر وتجمع اذا لم يقيدوها بسلاسل الذهب .

وكان يخيّل الى من يراه في وقاره وصمته وفي معاناته وتكاليفه أنه أريستقراطي معتزل، وعمر نفسه عرف الأريستقراطية والاعتزال، لكنه نضاهما عن منكبيه كما ينضو المرء عن ظهره رداء ثقيلًا في الصيف ، فان عمر فاخوري الذي أنبته بيت كريم الأصل والفعل كان في تربيته ومعاملته صورة لهذا النماء والاقتداء ، فكان أريستقراطي المظهر لكنه ديمقراطي المعاملة والهدف ، وقد صان نفسه عن التبذل والسوقية وهو يزداد اتصالًا بال جماهير وتعلقًا بتوجيه وعيها والتعبير عن تطورها وكفاحها .

ومهما نعدّد من خصال عمر فاخوري الانسان والاديب والسياسي ، فاننا نحار في أي خصاله أفضل وتبرز بينها مزيه الرأي والشجاعة حتى كأن صديقه المتنبي طبعه بقوله : الرأي قبل شجاعة الشجعان .

فكان عمر برأيه وتفكيره يخطط ويسدد ، كأنه مهندس ، ثم يجرى التطبيق والتنفيذ ، ولم تستطع أعين الرصد والحسد أن تنال منه ، فقد فرض توقيره بما أوتى من حقيقة ولباقة في معاناة الأمور .

ولكم كان ينقصه أن يدخل دائرته العقارية ، من الباب الذي تشاركه فيه « دار الكتب الوطنية » في وطنه بيروت فيعجب لنصيبه في الوظيفة ويضحك للزمن الذي ألقاه في سجل العقار ، وضمن عليه بسجل الكتاب ، وقد عد الكتاب أعظم حادث في حياته ، لكن للسياسة أسرارًا لم تبق مخبوءة ، فهي تخشى أمثال عمر الذين أعدتهم السخرية والعبقرية لتغيير مفاهيمها ومزalcها . وجعل ممثلها الصادق مرآة صادقة لمن ينوب عنهم أو يكافح من أجلهم أو كوخز الضمير كما قال عمر (١) لمن يتحدّى الجماهير في اندفاعها نحو الحق والحرية والاصلاح .

(١) من مقال لعمر فاخوري في « صوت الشعب » عام ١٩٤٣ .

دراسته وثقافته

أدرك عمر فاخوري عهد الكتاتيب في القرية والمدينة وقد عرفها موطنه البيروتى الذى سبق غيره من عواصم العرب الى المدرسة قبل أن تؤسس على قواعد التربية والتعليم .

ودخل عمر وهو فى سن الحضانة التى تعد ابن الأعوام الستة للمدرسة الحديثة فى أيامنا - كتاب « الشيخ عيسى قاسم » على مقربة من بيته ، فتعلم القراءة والكتابة سورا وآيات من القرآن على غرار المدرسة الالزامية المصرية ، ولولا هذه البداية القوية وما تلاها فى المدرسة العربية القومية لما ظهرت فصاحة عمر وقدرته فى الحفظ والفهم والتأويل وسلامة نطقه وأدائه فى الكتابة والخطابة ، ألم يكن لبعض الكتاتيب القديمة أثر بعيد فيما عرف عن أدباء الطليعة التحررية والفكرية وخطباء النهضة المعاصرة من القاء رائع فى العربية وتعبير بليغ ، ومن أساليب أدبية فصيحة لم تعرف عجمة أو ركافة ، فقد بدأ هؤلاء الرواد فى حفظ القرآن فى الكتاتيب وكانت لرجال ونساء - أو فى معاهد الدين واللغة ، وحلقات التفسير والحديث فى الجوامع والمنازل ، فتعودت ألسنتهم وأقلامهم لهجة سليمة وتعبيرا قويا .

ولما دخل عمر فاخوري «الكلية العثمانية» أو بالأحرى مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهرى (١) كان العصر يحمل انتفاضات قومية فى الشرق والغرب ، وكانت بيروت ودمشق فى ذلك الحين تتجاوبان

(١) مصرى الاصل أزهرى التحصيل ، بيروتى المولد والاقامة غرس فى الشباب العربى النزعة الاستقلالية وقد توفى عام ١٩٢٧ وسميت مدرسته بعده «الكلية الاسلامية» .

بالفكرة العربية التي ضاقت بذويها السيطرة العثمانية ثم الاتحادية التي عملت على تتريك العرب فخابت في الأثرة والمكابرة .

كان عمر فاخوري في المدرسة مشدود العلاقة والصداقة بالمعلمين والطلاب من صحبه فمن أساتذته فيها كان علامة بيروت مصطفى الغلاييني والطبيب بشير القصار والمربي المثقف يوسف حرفوش وقد حملت الدروس في الكلية العباسية ، الروح العربية التي وافقت مزاج عمر ونزعته وكانت الأناشيد الحماسية تردّد في الصباح والمساء ، ورفاق صباه ودراسته ينقلون له ما فانه من أخبار الفطائع الاستبدادية وقضايا المجاهدين العرب للحرية والسيادة القومية ، فيتبادلون همسا وخفية ملاحقة السلطة لبعض اخوانهم ممن عرفوا بالسخط على الظالمين ، فيزداد عمر فاخوري الطالب المتحفز حمية وألما ، لكنه يكبت شعوره خشية الاعتقال من الحكم ، والتعنيف من البيت الذي كان ينصحه بألا يؤذي نفسه بهذا الاندفاع ، فهو في ريعان العمر والحرب مشتعلة والظلم الصارخ يکید للاحرار والناقمين من الشيوخ والفتيان .

وكان الشاعر الفتى عمر حمد صديق عمر يترنم بشعره الثائر لدى أترابه ويثير عزم الشباب فيهم والنخوة العربية لكنهم كانوا يخشون المحكمة الظالمة التي ساقّت الثوار الى النار فيدارون حماسهم بالانزواء ، ولولا أنهم طلاب مدرسة ناشئون لرمتهم السيطرة في الجندية التي كانوا يتهربون منها خوفا من أن تلقى في التهلكة ، ولما تخرج عمر فاخوري من الكلية الأزهرية التحق بمكتب الحقوق في أثناء الحرب ولم يلبث أن أغلقت أبوابه فلجأ الى الجامعة الأمريكية يتعلم الانكليزية ويتفهم أدبها ، ولم تطل دراسته فيها، لكنه استطاع في هذه الفترة القصيرة ، والثورة العربية تمتد من أفق الى أفق وسنه لا تبلغ العشرين أن يكتب بحثه الأول « كيف ينهض العرب ،

قائلا فيه لأبناء شعبه انهم لن يتحرروا ويسودوا الا اذا تمسكوا
بقوميتهم العربية ، ولقد سبق بالدعوة من أجلها أعلام الفكر واللغة
فى لبنان ، فأخذ الشعب العربى يتنبه فى كل قطر تظلم وذاق
الهوان تحت قيود الاستبداد ، وظهر كتاب عمر فى السوق فتناقلته
الأيدي والأذهان بالمطالعة والملاحظة ، حتى عرفت السلطة خبره
فجمعت نسخه لحرقها وبادر أبو عمر الى بقية النسخ التى وجدها فى
بيته فدمرها فى صندوق حمله فى الليل الى بئر الشيخ رسلان قريبا
من منزله .

على ان عمر الذى ماج فى صدره الغيظ وبكى قلبه وهو يتخيل
سميه عمر حمد ورفاقهما يضطهدون ويشردون جزاء عروبتهم الشائرة
كظم غيظه مساييرة لوالديه وأهله لكنه استطاع أن يخفى بعض
النسخ من كتابه فى صندوق مهممل على رف من رفوف الدكان حتى
جاء يوم هاج فى عمر الشوق الى بحثه المبكر ففتح الصندوق وسحب
منه رزمة الكتب فتفتحت عينا الوالد على ولده بالحنان والرحمة وهو
يضمها الى صدره ودعا الله أن يحميه من غدر الظالمين ، على ان كتاب
عمر ضاع بين سمع الارض وبصرها فى ذلك الحين ولم تبق منه
نسخة الى اليوم . (١)

ولم تنقطع دراسة عمر فى تلك المرحلة الثقيلة خشية الجندية
الغاشمة ، فانتقل عام ١٩١٥ الى المعهد الطبى العثمانى ملتحقا بقسم
الصيدلة وكان هذا المعهد يمد الحرب القائمة بالاطباء ولم يكن هوى
عمر فى التشريح والحشرات ولا فى التحليل والعلاج ، وانما لاذ
بدراسة الصيدلة وهو يمارس التعليم فى بعض المدارس الاهلية
هربا من زجه فى الحرب وارساله الى جبهة القتال جنديا مغلوبا على
أمره ، فلما انتهت الحرب اتجه عمر الى الصحافة ناشرا مقالاته

(١) نشرت مجلة الفكر الجديد فى بيروت عام ١٩٦٨ فصولا زعمت أنها

من هذا الكتاب

التحررية فى جريدة الحقيقة البيروتية وغيرها بتوقيع مسلم ديمقراطى متهمكما على سياسة الحلفاء الذين وعدوا العرب بتأييد مطالبهم فى الحرية والاستقلال ثم غدروا بهم ، وكاد اليأس أن يدرك عمر فاخورى الشائر الناقم لولا أن الأمل فيه كان يتجدد باستقلال سورية ودعوته لدمشق لكى يشارك على ضفاف بردى فى تحرير «العاصمة» .

غير أن الفرحة لم تطل فقد حمل عام ١٩٢٠ لسورية ولبنان حكم الانتداب ، فاسودت الدنيا فى نظر عمر وتفكيره ، ولم ينقذه من القنوط غير السفر الى باريس لدراسة الحقوق مستعينا بأحد أعمامه على تكاليف الانطلاق وقد كتب عمر فى مذكراته الخاصة قائلا : « أعجل الله سفرى الى باريس وبعدى عن هذه الديار حتى لا يقع ما لا قبل لى به ، الامان الامان .. ألقيت سيفى .. انهزمت قبل الجلاء .. »

ويبدو ان عمر كان ملاحقا من قبل السلطة الانتدابية فقبل له يوما ان رجال التحدى (١) لا يكفون عن تتبع خطاك فاحذرهم .. وكان جوابه والسخرية لا تفارقه فى الشدة : أعرف ذلك وأشعر أنهم ألصق بى من المصلى بحدائه ..

وفى باريس عاش عمر ثلاث سنوات يدرس الحقوق متبرما ولكنه ثابر على دراسة الآداب والعلوم السياسية فى جامعة السوربون راضيا ، وكان شبيها بالاديب المصرى توفيق الحكيم الذى سافر الى باريس لدراسة القانون وهو كاره هذه الدراسة متعلق بالادب الذى كان يفضل عمر فاخورى مثله ، وكان أديب بيروت موفقا فى دراسته الجامعية ، فان الحكيم قد انصرف الى الحياة الفنية والفكرية وعكف على المسرح والمسرحيات ، وكان قبل سفره من مصر يكتبها ويقدمها للتمثيل ، أما عمر فاخورى فكان يوزع وقته فى باريس بين الادب والحقوق والسياسة واستطاع بالمثابرة والحرص على رضا الذى

(١) الامن العام أو المباحث والخبرات فى الاصطلاح الحديث .

أرسله من بيروت للدراسة أن يجمع بين ما يرضى نفسه ولا يخيب أمل عمه وقد انكب في باريس على أعظم الآثار الفكرية العالمية فدرسها بشوق ونهم .

وكان أناتول فرانس أديب الحرية والثورة أحب المفكرين الفرنسيين الى عمر فسعى اليه وعرفه بذاته ومؤلفاته ، ورافق نخبة من نوابغ السوريين واللبنانيين في باريس، فكانت الغربة والسياسة تجمعهم من حين الى حين وقد استخلص منهم عمر بعض الاصدقاء للسكنى والصحبة منهم محمد رستم حيدر واحسان الشريف ورثيف أبو اللمع وحلمى البارودى وغيرهم .

وقد ضمه الفندق الذى حل فيه الى الشاعر البيروتى صلاح اللبابيدى عام ١٩٢٣ فرافقه الى الحدائق والمتاحف وكانا ينتبذان ناحية في منتزه جميل ليقرأ في ديوان «الحسن بن هانى» فاذا مر بهم الباريسيون وقفوا يستمعون لهما وهما متلهيان عنهم مأخوذان بشعر النواسى ، وكانت أيام عمر في باريس أجمل أيام فى حياته وقد تمثله رفيقه اللبابيدى على بعد الشقة بينهما وبين تلك الفترة واقفا فى ساحة من الساحات الكبرى أو فى متحف من المتاحف أو متأملا فى عظمة « برج ايفل » وكأنه مسحور بروعة الفن ، فاذا تصور عمر أنه مفارق يوما هذه المباهج تألم ، وتجسم الأسى فى قلبه كلما ودع زميلا عائدا الى الوطن فتلفت الى الواقفين معزيا « عظم الله أجركم » .

وأخذ يعد الايام التى كان يرجو أن تطول قبل الرجوع الى الوطن ، على ان عمر فاخورى الهائم فى باريس لم تشغله هذه الحسنة ولياليها الحافلة بالحب والفن والجمال عما أخذت به نفسه من شئون السياسة والحرية فشارك بعض زملائه فى تأسيس الجمعية العربية السورية ، وكان مبع رفاقه الطلاب يدرسون المذاهب الفكرية والتحررية ويطول الحوار بينهم حول هذه المذاهب - والتيارات التى أخذت تتسلل الى البلاد العربية مع أشتات الثقافة واللغات .

وفى باريس عرف عمر فاخوري ندوات الفن والنقد والآراء الاشتراكية ، واستمع لكبار الجامعيين والمستشرقين محدثين ومحاضرين ، حتى اذا امتلأ قلبه وفرغ جيبه ارتد الى منبته بيروت عام ١٩٢٤ فرأى عمر أن يعود للنضال السياسى والفكرى فى الصحافة فاتجه لدمشق حيث كانت الصحف الوطنية والقومية تتصدى للسياسة وقضايا التطور والتحرر فأثر عمر جريدة صديقه الفلسطينى الأصل أحمد شاكر الكرمى منشئ «الميزان» وكانت هذه الصحيفة الادبية التقدمية فاتحة ثورة فى الحركة الفكرية المعاصرة والنقد التهكمى اللاذع ، ولم يطل عمر الكرمى فعاد عمر الى بيروت وقد ذاع صيته فى الادب الحديث لكنه ارتد بعد حين الى باريس للحصول على الاجازة الحقوقية اذ فاتته فى المرة الاولى .

هذه لمحات من دراسة عمر فاخورى ، من « الكتاب » الى المعاهد والجامعات فى بيروت وباريس .

أما ثقافته فكانت موسوعة مترامية الأطراف جمعت بين القديم والحديث فى الشرق والغرب ، ولم تقف عند حد أو تتخلف فى مسيرها عن الزمن ، فان عمر المطبوع على التطور منذ بدأ دراسته فى بيروت كان مفهوما بالكتاب والدارسة ، لا بالطعام والشراب ، وقد ينطبق عليه شطر من المثل القائل : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال ، وكان عمر فاخورى زاهدا فى المال ، وجدوى هذا النهم الفكرى لم تكن تخمة أو طفرة وانما كانت تألقا متجددا وتوقدا لا تنطفئ شعلته على ترادف السنين .

ولئن تصور الشعراء والرياضيون أن شعلة العبقرية من الاولمبية لا تتمد أبد الدنيا ويقتبس منها كل فكر ورأى ، فان الاشعاع الذى بعثه الخالق فى مواهب عمر فاخورى بقى متوهجا حتى غاب عن الوجود ، وبقيت هذه الشعلة تتألق فى سطورهِ وآثاره ، وان تحليلا ضئيلا لبعض مقالاته الفكرية والنقدية يدل

دلالة واضحة على اتساع ثقافته وتعمقه فى الدراسة والمعرفة .

ولا يبعد المثقف الكبير عن التاجر الملىء فكلاهما يستعمل عملته .
وكما ان التاجر لا يستطيع أن يدير التجارة الا برأس المال ، كذلك
المثقف الكبير لا يتوقف عن تنمية حصيلته وخبرته وكانت ثقافة عمر
شبيهة بما عند الصيدلى من عقاير على رفوفه وفى خزائنه ، وقد درس
الصيدلة مدة فكانت رمية هذا المثل من غير رام .

ولهذا اختصه المجمع العلمى العربى فى دمشق بتقدير واهتمام
فاختاره عام ١٩٢٧ عضوا مؤازرا ومعاوناً على القيام بمهمته فازداد
اهتمام عمر بآثار الفكر واللغة والتحقيق ، ومضى فى انعام نفسه الى
حلب مع مستشرق كبير ساعده بضعة أشهر فى البحث عن خصائص
الشرق وعاداته وكان هدف المستشرق مواصلة تنقيب له عن آثار
الحثيين فى «قره قمش» و «تل حلف» ، ولم يكن عمر فاخورى معنيا
بالآثار الا للثقافة ومساعدة صديقه المستشرق الذى عاد من ديار
الشام ليضع كتاباً عن الحياة العربية وتقاليدها فكتب عمر أكثر
فصوله ، وفى خلال تجواله بالشمال السورى كثر ترده الى مكتبات
حلب وعنيت مجلة « الحديث » بكثير من مقالاته ، كما تلقت مثلها
مجلة «الكشاف» فى بيروت على أمل المشاركة فى تحريرها للكشفية ،
لكن عمر استطاع أن يزيد فى قوتها فكانت مقالاته نقدية وفكرية ،
فتفتحت الأذهان والأعين على أدب حى حديث لا يقل قيمة وأثراً عما
جاء فى مقالات الأعلام من أدباء الغرب المعاصرين ، وقد تناول عمر
فى أدبه هذا قضايا خطيرة فى الحياة والابداع ، فأدرك المثقفون أنهم
أمام مثقف كبير ورد أشتات الينابيع حتى ارتوى وسكب من فيضه
فى أفكاره التحررية .

وقد صدق سمي عمر وصديقه الدكتور عمر فروخ بقوله فى
ذكره العاشرة : كان الجاحظ يرى أن الاديب يجب أن يكون ملماً
بسبعين فناً من فنون المعرفة تبدأ بقواعد اللغة والبلاغة والشعر ثم

تنتهى قبل أن تصل الى السبعين بالطب والفلك والموسيقا، والجاحظ فى هذا على حق الى حد ما ، غير أن عمر فاخورى يرد فى بعض مقالاته هذا الرأى ويرى أن الاديب حقا من كان على اتصال دائم يقظ بهذا الوجود .. لا كما عرفتة عصور الصناعة راوية للشعر ، حافظا للأمثال محيطا بالاخبار ، آخذ من كل فن بخبر (١) .

وما يكاد القارىء يتتبع مقالا واحدا لعمر فاخورى حتى يدرك أن هذا الاديب الموسوعى الثقافة والفكر كان يلم بأكثر من سبعين فنا من فنون المعرفة التى عناها الجاحظ ثم يتجاوزها الى فنون الادب الغربية وبخاصة الفرنسية ، مما لم يعرف الجاحظ ليؤلف بينها مقالا جامعا بين روعة الموضوع والاسلوب .

وعمر فاخورى نفسه وجد الادباء أمثاله أوسع اطلاعا على تراثهم وروائع الغرب وأصبح فهما لحقيقة الادب ومقاييسه من الاقدمين ..

واذا كان الامام بفنون المعرفة مطلوبا فى خصائص الاديب، فان التنسيق بينها هو الذى يدل على طابع الاديب ومقدرته ، وهذا ما تأتى لعمر فاخورى فى ابداعه الذى ألف فيه بين تراث الشرق والغرب تأليفا رائعا يلمحه القارىء فى دقة الملاحظة التى تكتشف مواطن الجمال فى التعبير وتدل على أماكن الربط بين لفتات الفكر الوثاب فى تهكم هادىء يخلق من السكينة جمالا لا تستطيع العين أن تلمح شيئا منه فى الحركات الهائجة والعزائم المجهودة (٢) .

ولئن درس عمر فاخورى تراث العرب فى بدائع شعره ونثره وتعمق فى أصول الأدب والبيان فانه لم يكن مشدودا الى هذا التراث بمقدار ما كان مشدودا الى أدب العصر وثقافته وفنونه . وبقي تعلقه بأدب الغرب يزداد بازدياد تطوره ومظاهره وعاش عمر بين

(١) الفصول الاربعة لعمر فاخورى ..

(٢) من كلام الدكتور عمر فروخ فى الذكرى العاشرة لعمر فاخورى .

أعلامه الغابرين والحاضرين فى شخصياتهم ومؤلفاتهم ، وقد استطاع أن يمزج بين الثقافتين العربية والغربية بكأس واحدة روية .

وإذا نظرنا الى أفذاذ الفكر الحديث فى أمتنا الصاعدة وجدناهم من الذين جمعوا بين الثقافتين ، ولم يقنعوا بالقليل ولا بالتقديم وحده أو الجديد ، والعقاد وطه وحسين والشهابى والأمير مصطفى وعمر فروخ وسهير القلماوى وعبد الرحمن صدقى وكرم ملحم كرم واندادهم من بناء الحياة الفكرية فى مصر والبلاد العربية ، عرفوا باتساع مواهبهم وخصائصهم جمع كل منهم بين ثقافة الشرق والغرب ، وإذا كانت قولة أحد الحكماء « التاريخ يعيد نفسه صحيحة » فإن ما اكتسب العرب من تمازج الثقافة الاغريقية بالعربية منذ عصر المأمون كان ذا أثر وجدوى فى الفكر والتأليف والترجمة .

ولولا تلك اللمسات السحرية من الفكر اليونانى لما أفاضت العقول العربية بالفلسفة الاسلامية والنزعات الجدلية .

ولئن حرم العرب أدب اليونان القديم فإن الحركات الفكرية فى عصرنا تناولت من ثقافة الغرب كل نتاج فى الأدب والفن والفلسفة وهذه الظاهرة المترامية على آماذ الغرب من شرقنا العربى لا يمكن أن تدخل الضيم على تفكيرنا الحديث على الرغم من الغزو الفكرى المريب الذى يدعم الاستعمار وعمر فاخورى الذى تلقى ثقافته الحقوقية والفكرية من الغرب عرف مواقع الفائدة والمتعة فى مزاج هذه الثقافة فتناول منها ما ينفع واجتنب ما يؤذى لأنه أوتى البصيرة الملهمة والفكر الناضج فعب من ثقافة الغرب ولا أقول ارتوى ، بل كان يزيده ظمأ الى كل جديد مفيد منها ، حتى ظهر تأثيره بما أفاد واضحا فى مقالاته وآرائه ، وما كانت الا سابقة الأيام فى مطالعها المبكرة لأن بلادنا العربية التى شغلها النضال الوطنى للحرية والاستقلال كانت تهب عليها من حين الى حين مذاهب الفكر والسياسة

والاجتماع فتتناولها بعض الأقلام بالدراسة العابرة او النقد الجانبى ،
أما عمر فاخورى فقد عاش فى هذه التيارات ومشى معها دون أن
يعاكسها أو يتأبى عليها شأن بعض المتعنتين الذين حرصوا على
القديم ولم يتغيروا فى التفكير أو الذين اندفعوا دون تمحيص .

ولم يكن عمر فاخورى الذى تلقى دراسة مكينة فى العربية
والفرنسية وعرف بعض اللغات الأجنبية مثقفا فحسب بل كان مثقفا
كبيرا أفاد أدبه من هذه الثقافة الموضوعية ، وجعله متفوقا متالقا ،
وما كانت ثقافته المتجددة لتنام بين دفتى الكتاب وتقع بالسطور
والقرطاس ، وانما كانت وسيلة لا غاية جعلته يعيش فى المجتمع
ويشعر انه من الشعب وللشعب .

واذا كانت كلمة الثقافة التى حيرت المفسرين والمعجميين
بمعانيها لانها غير محددة فان عمر فاخورى المثقف الكبير قد أعطى
الوجود الفكرى الحديث مثالا صادقا من تفسير الثقافة الحبة
بشخصيته وأدبه واتصاله بحقائق الوجود وحوادثه المتعاقبة .

الفصل الثانى

عمر فاخورى

فى عصره ووطنه

يعد النصف الأول من هذا القرن عصر الثورة العربية والتحرر الوطنى ، بكل ما حملت هذه الكلمات من الصور والمعانى والأهداف وان بدرت الانتفاضات القومية المبكرة مع أعقاب العصر الماضى ثم اشتدت وتعددت فى أكثر البلاد العربية وتمثلت فى مكافحة الاستعمار على اختلاف اشكاله وأسماؤه ، وكان صدى الثورة والحركات التحررية يتردد فى الآفاق ويتجاوب بين رواد الفكرة العربية الذين سبقوا من المنابت اللبنانية والسورية الى التنادى من أجلها بعد أن ضاقوا بالسيطرة العثمانية واستبدادها بالشعب الذى رزح طويلا تحت أوزارها ، حتى ازدادت هذه السيطرة بازدياد الوعى القومى ومطالبته بالحرية والعدالة ، فشرد الحكم الغاشم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ذوى المطالب الوطنية من الأعيان والمفكرين ، وطرح كبارهم فى المنافى والسجون ، وعلقت السيطرة الحاقدة فى ساحات بيروت ودمشق عام ١٩١٦ و١٩١٧ مشانق الأحرار الذين كانوا يسعون الى سيادة بلادهم واستقلالها ، بعد أن خابت آمالهم ونصائحهم فى تعديل الحكم وتقويمه .

وكانت مصر التى ابتليت باحتلال بعد احتلال وكابدت الحيرة طويلا بين ارتباط شكلى بدار الخلافة ، ودوران حول نفسها مستجيبة

للدعوة القائلة « مصر للمصريين » وبين تباعة لدار المندوب السامي
مثل الاحتلال الانكليزي ، تعيش مرهقة فى كفاحها ومتاعبها
وتثور من حين الى حين بأعداء حريتها وحقوقها حتى هبت عام ١٩١٩
على اختلاف هياتها وفئاتها لمناوأة الغاصبين الذين اضطهدوا المصريين
واستعان استعمارهم بالتفاوت بين الناس فى المعيشة والوعى
والاتجاه على تثبيت مطامعهم ونفوذهم ، فاذا عادت الثورة الى أشد
مما كانت ضد الاحتلال علل ممثلوه المصريين بالمفاوضات المطولة
والمعاهدات المكررة لكن سبب اليقظة والنقمة وصيحات المكافحين
والمصلحين ألهمت فى الشعب مشاعر القومية والوطنية وعزمه على
دحر الاستعمار ومناوأة أعوانه ومنفذه .

وفى سورية التى لم ننعم طويلا باستقلالها (١) بعد الحرب الاولى
كانت الانتفاضات - التحررية والقومية لا تفتقر ولا تهدأ ضد
الانتداب الذى اقتحم أرضها بالغضب والحيلة ، فصدته بكل ما أوتيت
من شجاعة وايمان وأقامت دليل الفداء والاباء فى ضواحي دمشق
بميسلون عام ١٩٢٠ حيث قاومت الذين هاجموا بسلاح الغدر
والعدوان الشعب برجاله ونسائه وجيشه الاعزل الا من الوطنية
والبطولة ، قد هب للكفاح ولم يدخل الغاصبون بلاده الا عنوة
وعسفا ، حتى غدت قضايا الحرية والعروبة بين السوريين والحكم
الانتدابى نضالا طويلا كان يشرد رجاله ويهدد أبطاله بالموت ، وقد
جعل الأطراف والجنبات دويلات وقطائع وأثبت فى بعض جبالها
ونواحيها اقليمية ومذهبية ، لكن سورية التماسكة بحقيقتها
وعروببتها لم تنحرف عن وجهتها وفى كفاحها ، وكانت غضبتها
الكبرى عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ على أشرار الانتداب وغاصبي الحرية
حديث العالم فى ثورتها الشعبية ومضيها فى النضال .

(١) دام زهاء عامين من ١٠/٥/١٩١٨ - ٢٤/٧/١٩٢٠ م .

وفى جنوب الشام على الاصطلاح القديم كانت فلسطين هدفا بعيدا للمستعمرين المسييرين ، وعد مهدوا لمن جاعوا بعدهم عام ١٩٤٧ موعودين بوطن الفلسطينيين ، قدموه هدية للصهيونية التى تبناها الاستعمار وجعلها وسيلة لضرب العرب فى تحررهم من نفوذه ، فبنت الصهيونية بالخدمة لغدها وقهرت أصحاب الوطن الذين ضاقوا بالمستعمر الغادر وهم فى قبضته يعد لهم سوء المصير . ولم تهدأ ثورة العراق من أجل الحرية والاستقلال ، فمنذ ألقى الاحتلال الاجنبى شبابه وأشواكه كان العراقيون فى صراع مع أعداء سيادتهم وحقوقهم ولم يسلم الا القليل من النفوذ الاستعماري فى البلاد العربية .

وقد اختلف أمر المحتلين فى لبنان بعد الحرب العالمية الاولى ، بعد ان قاومهم الجنوب وبعض الشطوط زمنا ، فان من تلقوا ثقافة الانتداب من اللبنانيين وآمنوا بأهداف الثورة الفرنسية حسبوا أن الاحتلال سيحقق هذه الأهداف فى بلادهم ويتيح لأهلها أن يسودوا فى رعايته المؤقتة فيمهدوا للاستقلال ، لكن روح الاستعمار خببت الأمل فيما اصطنعت لآربها فقد جزأت الأرض الطبعية وفصلت الجار عن الجار ، وضخمت لبنان الذى كان ذا امتياز قديم بالحكم والاستقلال فى عهد العثمانيين فحذفت سلطة الاحتلال من تخومه وأضافت اليه ما كان متصلا بغيره وقد غدت هذه السلطة المرجع الأعلى فى السياسة التى دارت على لبنان بالتفريق بين العناصر والطوائف وبين الحركات التحررية واقصاء الشعب عن ثقافته العربية ، فيسقم لبنان من العشرين فى هذا العصر الى الاربعين واقفا على سياسته كما قال عبد فاخورى وقوف شاعر على الأطلال بينما كانت الدنيا تدور والأقطار المجاورة تسير . . (١) فان بعض اللبنانيين الذين ذاقوا الويل فى ظلال

الحكم العثماني قنعوا بالحكم الاجنبي الذي اطعمهم من خيرات بلادهم
وآمنهم حيناً من نفسه . فأحبوه وتعلقوا بلغته وحمايته ، أما الجناح
الآخر في لبنان فكان يشعر بالغضاضة والاححاف في هذا الانتداب
الذي مزق وفرق بقفاز من حرير ، ويرجو أن يتلاقى جناحان عند
الحقيقة والاخاء في تحرير الوطن من كل ما يعوق سيادته وانطلاقه
فلبنان منذ كان لم يقف تلقاء الحرية والحضارة منقبضا أو منظويا
على نفسه ، فبابه مفتوح على مصراعيه للأبيض المتوسط وظهره
مشدود بأصائله في القومية واللغة والتراث ، الى تاريخ الشرق ،
فلماذا يبقى أحد جناحيه مؤثرا الدوران على ذاته ، يخشى أية صداقة
أو علاقة باخوته في العقيدة والمودة وجيرته في الأرض ، ولهذا كان
أكثر اللبنانيين المؤمنين بحقيقة دورهم في رسالة الفكر والحضارة
لا يتخرجون من التمرس بأساليب مستحدثة تجمعهم على الوحدة
الوطنية والألفة الباقية .

وكان عمر فاخوري الذي تلقى ثقافته الفكرية وآراءه التحررية
في عاصمة المحتلين بلاده من هؤلاء اللبنانيين الذين يريدون مقيمين
ومغتربين - أن يبقى لبنان على عهده وسجاياه سباقا في دعواته
للحرية والكرامة القومية ، حفيظا على اللغة والاصالة والتاريخ ، وان
تجاذبت فريقا من جناحيه تيارات متضاربة ، فقد آن للوطن وهو
يتهيأ للحياة الاستقلالية البانية ، أن يستحدث سياسة جديدة تتغير
فيها العقول والطوايا وتتححر الافكار والنفوس من كل ريبة أو خشية
في مواجهة الحقيقة اللبنانية التي ضمت جناحي لبنان على الهد والعهد
والوطنية الصادقة ، فيعود الشعب سيرته الأولى في الطموح والابداع
ويتطد استقلاله بالتعاون الوثيق علم البر بأهله جميعا والاخلاص
للقضايا العربية في معارك الحرية والمصير .

فليس عجيبا اذن ان يمثل عمر فاخوري عصره ووطنه في

انتحرر القومى والفكرى وأن يعبر عن جماهيره فى مقالاته وآثاره
وفى حياته وكفاحه ، ولقد كان عمر مطابقا لهذا العصر - ان يصح
تعبير التطابق ، تمثل فيه الفكر العربى الحديث الذى أفاد من
ثقافة الشرق والغرب والوعى السياسى الواسع فى شئون البلاد
العربية والأجنبية ، فقد لابس المسألة الشرقية منذ ظهرت بوادرها
وكان واقفا على خفايا الاستعمار ومطامعه فى أرجاء العرب ، ولكى
نضع عمر ضمن عصره وفى محتواه نجد هذا العصر الذى امتد
فى عمره نصف قرن قد أوتى حياة متعددة الوجوه والمراحل
والاطوار فالوطنية والقومية سبقت الحياة السياسية فى الامصار
الغربية والعربية ودزت ملامح الثورة والانتفاضات الفكرية
والتحريكية فى وعى الشعب وتطوره فى التربية والمجتمع وفى المعيشة
والسلوك .

وقد تجلت المنازع القومية والاستقلالية فى كفاح عمر منذ
صباه ، ولو حللنا العوامل التى حفزته للانطلاق حتى جعلت منه
ممثلا لعصره وقومه ، لوجدناها صادرة عن تفوقه وسبقه قبل الأوان
الى ما أخذ به لرواد العرب من المجاهدين والنوابغ فى الحياة الوطنية
والاجتماعية .

وكان لأعلام الفكر الغربى المعاصر أثر عميق فى تجاربه ومواجهه
فقد عاش عمر طويلا فى أدب برنارد شو وأناتول فرانس ورومان رولان
وولز وأندريه جيد وغيرهم ، وقد اتسعت عنايته بآراء الغربيين فى
مسائل الشرق فتتبعها وعرف مداخلها ومخارجها وألم علما باقتباس
المستشرقين من روائع الفكر الاسلامى والنظريات الاجتماعية والفنون
الابداعية ، اذ أراد المستشرقون أن ينسبوها الى علمائهم فيما وجدوا
من تراثنا كالكوميديا الالهية وفكرة الجبر الاجتماعى عند ابن خلدون
وسواها كثير .

ولما أعجب عمر بالحركة الوطنية التي عبر عنها الزعيم الهندي
غاندى في حينها ، كتب عمر مقالات في هذا الموضوع ، وعل كتاب
رومان رولان الى تعريبه في سيرة غاندى الانسان الذى احدث
بالموجود الاعظم .

على أن عمر فاخورى في حركاته التحررية كلها لم يكن في زمانه
وراء مدرسه أو مذهب أو اتجاه محدد ، بل كان دوما وراء نظراته
الثابتة ونقداته النافذة في شئون الحياة وتطور العصر مهتما بيومه
الذى يبني لغده مطبقا رأيه على ثقافته وحياته وقد عاش منغمسا
في حضارة عصره ، فلم يحرم نفسه من مباحجها وآفاقها ، وان في
كتبه القليلة العدد الكثيره الافكار والآراء وما في مضمونها من قيمة
وقوة الدليل الواضح على مسايرته للعصر واتصاله بأهم مشكلاته
وقضاياها ، وكانت متعددة معقدة ، شرقية وغربية ، اقليمية وعالمية
وفى مظاهر العصر مجموعة الاضداد والنقائض فمن علم اتسعت
أبعاده وتعمقت أغواره وانطلق في الفضاء اختراعه واعجازه ، الى
جهل مطبق على الاعين والبصائر وأمية في الحرف والفكر والحياة ،
ومن أوهام غيبية والحاد واباحية زرت ظلمة الروح والقلق الى
تعاليم سماوية ونسانية ملأت القلوب والنفوس ايمانا ونورا .

كل هذه الامور التي ضج بها العصر وشقيت من جرائمها البشرية
وقف عليها عمر فاخورى وجال فكره في ظواهرها وعدواها ، فكان
يلم قلبه بالحديث عنها في نقداته ومقالاته دون أن يعقد لها تحليلا
أو فصولا أو يختص بعضها منها بدراسة أو رواية لكنه يتناول بالالامع
الدقيق أو الحجة الدامغة ما يغنى عن التفصيل في عبارة لاذعة
وسخرية مرة يحس القارىء فيها روح العصر وصور الحضارة والثقافة
وازدحام المذاهب التي تبحث عن الحقيقة وهى نصب الاعين ، غير
أن الحيرة في ترف الذهن والفن وطغيان الباطل جعلت العقول هائمة
في التفسير والتعليل .

واما شخصية عمر فاخوري في وطنه فقد انعكست عليها أطياف ما في سجايها بيروت وطبيعة لبنان من انسانية ومروءة رفت على جوانحها المحبة والسماحة ، وكان لنشأة عمر الواعية ومدرسته الأولى وصحبة أترابه فيها اثر في تطلعه الى المعاني الجديدة القديمة في حرية الأمة العربية وكرامتها في لغتها ومقومات حياتها ، وفي تعلقه بالأرض التي انبتته واعدته لما يحمل في قلبه وبصيرته من حوافز الاخلاص لها في مواهبه وكفاحه ، لا يبتغي هجرة منها في طموحه ، ولا نزوحا عنها في همه وكربه ، مهما ضاقت على وعيه وآماله ، وكان نوابغ الفكر والفن في بلاده يفضلون الانطلاق والرزق في الاغتراب كلما آسفهم الاهمال أو الاستبداد، لكن عمر فاخوري الذي اغترب للدراسة والثقافة عاد الى بيروت عام ١٩٢٤ وهو أشد ما يكون تعلقا بمن فيها وما طوت عليه أصالتها من جذور راسخة في حضارة الفكر والكلمة وصداقة الفن والقيم الرفيعة وكانت من نفحات لبنان ومغارسه الخالدة .

وكانت بيروت موطن عمر في عصره والجيل الملهم خلفها يمدّها بالشعر والبطولة والابداع - يطبعان في نفس عمر فاخوري جمالا منضوجا بزرقة البحر والسماء رفاقا ببياض الشطوط والقمم ، وخضرة الأرض والمروج ، ففضل عمر هذا الفتون والاشعاع في طبيعة بلاده وعناصر حياتها على كل افق ومدار ولو كان فيه لأمثاله المجد والثراء .

وقد تعاقبت على حياة عمر آثار الوطن في نواحيها العلمية والعملية فنهل من معاهدها وتراثها وينابيع قوميتها ما وسع آفاق تفكيره وأدبه ، وجعله يؤثر ثقافة الذين احتلوا وطنه فانطلق الى العاصمة التي لم تعصمهم من التنافس في مصايد الاستعمار ، والتحالف على اقتسام البلاد العربية الموعودة بحريتها في الحرب العالمية الاولى . ولم يستطع عمر فاخوري الظآن للحرية والمعرفة الا أن يحب

باريس في طوابعها ومباهجها ، في متاحفها وحدائقها ، وقد ملا فتره
ربصره من نوحج لياليها بنيران صنوبها وفتح قلبه على نغافه فيها
عميقه حنت على مزاجه وذوقه ، صادق في اساتذتها وآثارها فعب
من فيض عقولهم وسحر بيانهم وفنونهم وما ارتوى فارتد اليهم
مرتين حتى حمل الاجازة في الحقوق وعاد الى بيروت بأمل جديد وعقل
جديد فلم يجد فيها ما يحقق ل نفسه ورسالته ما أراد ، ولم يكن في
الوظيفة مجال الانطلاق تفكيره وقلمه ، فما ضاق ببيروت ولا ضاقت
هي به ، وقد رسخت محبته في صميمها وعرفت مواقفه وبوادره من
أجلها ، وهي التي عمقت احساسه بالجماهير في القريب والبعيد ومنحته
الثقة بها وبذاته ، لكنه كان يعلم ان فيها من تجهموا لأدبه الرفيع
وتجاربه الفنية والوطنية ، فلم يجدوا له مكانا ولهم ضمانا الا في
دائرة للعقارات ، تحت دار الكتب الوطنية .

وما كانت الخيبات والنكبات في حبه وحياته ، لتجعل من ضغطها
وبغثاتها انفجارا في عمر يعبث بأعماقه ويزين له الفرار وهجر
الديار ، بل ازداد التصاقا بالتراب الذي أحتوى شريكة عمره وفتاة
أحلامه في ريعان صباها وهواها ، فكان عمر فاخوري يمر بذلك التراب
الواله لولفه في ذهابه واياه فيشعر أنه مع الذكرى التي لا تبلى .

ومن دأب المفكرين والأدباء اذا تمللوا من الحياة أو تأبّت عليهم
آمالهم أن يملئوا أوراقهم وقصائدهم بالشكوى ، لكن عمر الذي
أصيب بأشتات المحن والخطوب كان صبورا في الرزايا مستخفا
بها فيهنونها على نفسه أو يلتزم الصمت والعزلة في بلواه .

لم يكن يتظلم أو يتبرم بقلمه أو بلسانه الا فلتات كانت تلوح
بين سطوره ونكاته ، حتى شغلته بيروت عن نفسه ومواجهه الخاصة
اذ كانت كل شيء في وجوده وكفاحه ، ولو صدق مذهب الحلول
لانطبق على عمر فاخوري بينه وبين موطنه ، فمن أجله وبسبيل

انوص العربي الالبر لانت بواكير حماسته وقلمه ، وان بنر « الشيخ رسلان » في الحى القديم هو الذى تلقى ماوه وقعره صندوق الكتاب الاول ، وكيف ينهض العرب ، وهو الذى يذكره دوما بالرسالة التى حملها مبكرا ثائرا .

وما كانت وطنية عمر هتافا أو ملقا أو ارتجالا ، وانما كانت أدبا حيا قويا وسعيا صادقا الى كل ما يرفع شأن بلاده اللبنانية وينافح عندها خصومها فى الضيم والاستغلال .

ولئن التصق عمر بوطنه وتعلق بنهضته وتحريره من شوائب الاحتلال ورواسبه فى النفوس ، فانه لم يكن ضيق الآفاق والنظرات وقد تفتح قلبه على الفكرة العربية التى كانت من منابت لبنان ومن هدف رسالته القديمة ، فأراد عمر فاخورى أن تعود هذه الرسالة سيرتها الأولى فى الفكر والتراث والتعاون الاخوى بين بلاده وأرجاء العرب الذين وحدت اللغة والثقافة والحقيقة بين جهادهم للحريّة والسيادة القومية منذ أعقاب العصر الماضى « فليس يخطر لأحد ببال هنا وهناك أن ينكر الصلات الوثيقة التى تربط لبنان وسائر الاقطار العربية ، صلات مادية وروحية ، صلات فى الماضى والحاضر ، وليس يخطر لأحد ببال هنا أو هنالك الا يجذ كل مسعى يهدف الى توثيق هذه الصلات ودعمها فى المستقبل .

» وقد تتعدد آراء اللبنانيين فى بعض المسائل كنوع العلاقات بين بلادهم وبين الاقطار الشقيقة أو غيرهما لكن ثمة أمرا يجمع عليه كل الوطنيين هو المحافظة على كيان لبنان واستكمال عناصر استقلاله ، (١)

وقد نشر عمر فاخورى كتابه الاخير « الحقيقة اللبنانية خواطر

وأحاديث متغنيا برسالة لبنان في ثقافة تمازج وتجاوب وأخذ وعطاء .

« لا يمكن أن يكون لبنان وطننا دينيا أو مذهبيا ، لا يصح أن يكون الا وطننا لجميع أهله على السواء » .

« فلبنان منذ كان لم يقف على ساحل هذا الأبيض المتوسط ازاء مدنياته القديمة والحديثة كما يقف الصياد الذي دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة . . »

« ما كان صغر رقعته ليقفه أو يكفه عن أن يعطى العالم أداة التخاطب المثلى وأساليب العبادة الفضلى وطرائق للفكر والعمل قوية » .

بمثل هذه الحواطر اللبنانية كان عمر فاخوري يعبر عن وطنيته وتعلقه بأرض بلاده - وسيادتها وعن وفائه لرسالتها وارتباطها الروحي والفكري بقضايا العرب وهمومهم ، فما من قوة تستطيع أن تسليخها عن وشائج الدم والقربى والتاريخ ، فكانت كلماته الماثورة والمنشورة في كتبه أو المطوية بين صفحات المجلات تشف عن اهتمامه الدائم بوطنه لبنان وما يريد له من الخير العام . فمنذ غاص في حياة الجماهير أدبيا ناقدًا ، ووطنيا مكافحا كان ينظر الى المجتمع قبل الاستقلال فراه في تعدد طوائفه كان فيه الحدود التي تفصل وطنًا عن وطن . فقال ذات يوم : « ان في لبنان بين المذهب والمذهب وبين الجنس والجنس من الحدود والحواجز ما يحتاج معه الى حواجز سفر كأننا شعوب في شعب وأوطان في وطن ، ولما استقل لبنان وجمع الميثاق الوطني (١) أهله في وحدة وطنية ملأت الفرحة صدر عمر اذ

(١) من ذكريات الميثاق للرعيم السروتي الذي شارك فيه «صائب سلام» وعنده الخبر اليقين والوثائق التاريخية الحية في قضايا التحرر والاستقلال .

رأى « لبنان الذي كان متخبطاً في حيرته باحثاً عن ذاته ، تارة مشرقاً وتارة مغرباً ، يجد نفسه حيث يجب أن يجدها » فدعا لتعهد اللقاء الجديد القائم على الحقيقة والحرية بالصون والرعاية وأن يفديه أهله بالقلوب والأفئدة .

واطمان قلب عمر فاخوري بالروح التي سادت لبنان بسيادته القومية ووحدته الوطنية ، فان تجاوب الشعب المستقل قد أخذ على نفسه العهد والميثاق عام ١٩٤٣ بأن يعمل على تحرير النفوس من كل ما رسب فيها منذ الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب الفرنسي، وما أروع الموثق الشعبي الذي لم يكن مكتوباً بالحبر والورق ، وانما جاء عهداً في الضمير والشعور نابعا من ايمان اللبنانيين بحقيقته الوطن ورسالته .

وفي عام ١٩٤٥ أكد ينة العهد الجديد في لبنان عند انشاء الجامعة العربية « ان بلادهم جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير وهو عضو في الأسرة العربية متعاون في كل ما يثول الى خيرها أو يدفع الشر عنها » فامتلاً قلب عمر نورا جديداً من اشعاع الوطن الذي تألقت مصابيحها ومواهبه وكان عمر بينها يحمل وعد الجماهير في المبادئ الفكرية والانسانية التي « تجعل للحياة قيمة بل التي لا قيمة للحياة بدونها » فأقدم عام ١٩٤٣ على خوض المعركة الانتخابية للنياحة مستقلاً منفصلاً عن كل قائمة حزبية أو لائحة تكتلية ففاز بأصوات الصادقين المؤمنين بأن عمر سيكون ممثلاً لهم واقفاً بالمرصاد لكل واقف بطريق الشعب ، لكن هذه الأصوات على كثرتها لم تضمن له الانتصار بالمعركة ، فكان عمر فاخوري مثل قائد خسر المعركة وهو يفديها بشهامته وشخصيته فأشبهه من ركب البحر دون بخار أو بوصلة ، اذ اندفع الى الساحة بسلاح القلم والوطنية وايمان جماهيره الصاعدة ، شاعراً بالتبعات التي تلقى على

أمثاله فى أرقى الأمم وأقواها ، لكن المنازل المرصودة لذويها
بالوسائل التقليدية أغلقت فى وجه عمر ، ولو طال عمره عشرين
سنة لوجد الرياح الموسمية ما زالت تطيح بأمثاله ، فتعزى بصديقه
الشاعر سعيد عقل الذى أحب أن يمارس تجربة عمر ، لكن ضفاف
البردونى التى كانت من ملهماته قد تجهمت له فى السياسة فخاب
مسعاه ، على أن عمر فاخورى الأديب الوطنى الذى أراد أن يكون
سياسيا قد استطاع أن يكون ، ولكن من طراز جديد ، وفى عهد
جديد ، شق من بعده لأنداده الطريق ، لعل التغيير فى النفوس يحرر
الناس من سحر الجيوب التى بمقدورها أن تغير كل شئ حتى مجرى
الأنهار .

وعاد عمر الى الساحة عام ١٩٤٤ أديبا واقعيا يصور بقلمه حياة
الجماهير التى بادلته وفاء بوفاء وكانت هذه الحياة من الينابيع
الفياضة لكل فن وقلم وكفاح ، فنشر عمر حصيلته من نتاجه بعد
المعركة « أديب فى السوق » .

وازداد فى تلك الفترة القصيرة المحصول الأدبى لعمر فاخورى
الذى استمد عناصره من الحقيقة والواقع بعد استقلال بلاده ، فأذاع
أحاديثه وخواطره تحت عنوان « الحقيقة اللبنانية » مصورا فيها
اعتزاز الجماهير باستقلالها وعودة الوطن الى رسالته فى الحرية والقومية
وقد أشاد فى العام نفسه ١٩٤٤ بالصدقة الرائعة التى ربطت بين
الشعوب المكافحة السائرة نحو التحرر وبين البطولة السوفياتية فى
سحقها معاقل النازية .

على أن المرض أخذ يتسلل الى جسم عمر دون رحمة أو هوادة
وهو لا يعبأ بمجهود أو عسير . فما كانت الوطنية رداء يلبس حيناً
ثم يفضى عن صاحبه طوعاً أو كرها بعد حين ، وانما كانت فى عمر
عقيدة راسخة نبعت من القلب والقلم ، وجلدا قد التصق باللحم

والدم ، فعاد عمر على بدء ليعاود سيرته الأولى وهو يتشبث بأن يعيش ...

وإذا كانت ساحة النواذب فى كل أمة مرتعا لزحام الحياة والموت فان الحياة التى حرمت عمر فاخورى سعادته وضنت عليه بما أراد وهو قعيد وظيفته تحت « دار الكتب » كان الموت أكرم منها ، اذ أتاح لعمر أن ترف روحه على صورته التى علقها التكريم (١) بعد غروبه بأربع سنوات فى جدار الدار التى تاقت نفسه إليها فى شروق الحياة



مركز تحقيقات كاپتور علوم اسلامى

مكانة عمر

فى الأدب والمجتمع

أدب عمر فاخورى وكفاحه المبكر للتحرر الفكرى والوطنى أحله مكانة مرموقة فى وطنه بيروت وفى العالم العربى الذى عرف نبوغه ورسالته ، وكانت آثاره تملأ القلوب اعجابا بفنه وبيانه وتفتح الأعين على تطور فى الأداء وأدب تحرر من التكلف والتقليد واستمد المعانى والصور من ينباع الحياة وقد امتزجت فيه الثقافة العربية بالغربية واتسم أسلوبه بالابداع الفنى وشف عن شخصيته بمقوماتها وخصائصها .

ولقد ترامى صيت عمر فى أدبه ومواهبه ومشاركته فى الكفاح للديمقراطية والسيادة القومية منذ هبت رياح النقمة على السيطرة العثمانية ، وكان عمر فى ريعان العمر يندفع فى شعوره وتفكيره مع أنداده ولداته فاتسعت شهرته وهو لم يبرح وطنه بيروت بعد أن عاش مدة فى دمشق وحلب وباريس وزار القاهرة وكان الاغتراب من لبنان فى بؤادر الثورة العربية للرزق والحرية من أسباب الانطلاق، لكن عمر فاخورى الذى التصق بأرضه وذويه وعقد عليهما أمله الكبير لم يستطع الانفكاك عن منبته ولو الى حين وقد عاد من رحلته الثانية للدراسة الحقوقية فى باريس وهو أشد ما يكون تعلقا بالوطن والفكرة التى حملها منذ صباه ، راجيا أن يلقى فى بيروت مدينة الثقافة والجامعات ومنازة الاشعاع والالهام عملا يحقق فيه عمر ذاته ورسالته ، لكن الأبواب أغلقت فى وجه الحقيقة التى تتأبى على الملق والمداورة ، وكان عمر يسعى وراء هذه الحقيقة فى أدبه

وحياته ، فلم يعجب للسدود والقيود التي أقامها الرياء والخنوع للأحرار . وقد رأى أن بلوغ المناصب يكون أحيانا بالتسلق والتزيف أكثر مما يكون بالجدارة الفكرية والكفاح ، فاضطر عمر الى التمرس بالصحافة حيناً وبالمحاماة حيناً ، على أن تمرسه بها كان كتمرس أبى الطيب بالآفات ، لا المحاماة تنقاد له صاغرة ولا هو يبش لها منزلاً ، « فكان يدعو الله سرا وعلانية أن يصرفها عنه بالتى هي أحسن (١) » وقد تحدث الشاعر صلاح اللبابيدى عن ضيق عمر بالمحاماة (٢) التى لم تلائم طبعه ومن جرائها أعرض عن وظيفة فى القضاء ، فمضى عام ١٩٢٩ الى دائرة تكدست فيها الدفاتر العتيقة وجلس عندها ينظر فى صفحاتها ومحتوياتها فيعجب لنصيبه فى هذه الدائرة ، وكانت الوظائف التى خلق لها مغلقة الأبواب فى وجهه ، وقد تبجح فيها من كانوا دونه علما وعزما ، وما حيلة المضطر الا القيام بما عهد اليه فى تلك الدائرة تفتح دفاترها لذوى العقارات والأموال بالتحديد والأقارم ، وما انقادت له يوما أو آنقاد لها غير انها فى الوظيفة لا مناص منها فهى تتبع العقار والسجلات وتلحق بالحدود والصكوك .

وكان عمر فاخورى يدور فى دائرته على نفسه بالتساؤل أولا الوجه الملائكى الحنون فى زوجه العتيقة التى كانت أيامها معه أحلاما وأنغاما وكان عام ١٩٣٠ مشرقا سعيدا بأمل الأسرة والولد ، لكن الموت تخطف ذلك الوجه الذى رأى فيه عمر سعادة عمره وألهاه عما لقى من حيف وحرمان ، فحبس نفسه فى منزله أياما طويلة ثقيلة كابد فيها اللوعة والفجيرة ، فقد مات أمله الأكبر واسودت الحياة فى نظره وتفكيره فانطوى على ذاته وكآبته ، ولولا الوظيفة

(١) الحقيقة اللبنانية ص ٨٤ .

(٢) الثمالات لصلاح اللبابيدى .

لقطع ما بينه وبين الناس وكانوا يحبونه ويجلونونه ، فهالتهم الصدمة التي تلقاها أديبهم بالحزن الصامت ، وحملوا معه الحسرة والألم ، وقد دامت هذه العزلة التي سجن فيها نفسه بضعة أعوام كان صديقه فيها ورفيقه الشاعر المتنبي الذي أحبه عمر ، ووجد لديه شعوره بالتأسي والمصابرة ، فان أبا الطيب لقي أشباها مما لقي عمر في مضیعة الحب والحياة .

وما كان ترادف السنين والحوادث ليستطيع أن يرمم قلبا هدته المصيبة وآسفته الخيبة في حياته الجديدة ، والانسان الذي أوتى رهافة الاحساس يقيم في قلبه لأحبابه منازل ثم تأتي الخطوب والهموم فتزيلها من الوجود وتهب عليها عواصف نفسية من يمين وشمال حتى تزيل رسومها ومعالمها ، ونحن بنى الانسان نحمل بين جوانحنأ أطلالا عافیات ، وكذلك حمل عمر فاخوري أطلاله بين جنبیه ، وعاش بينه وبين نفسه ينادمها ويناديها وما أحسسا بحسيسها الا قليلا بين سطور كتبها دون بوح أو تصریح ، وكان ينبغى لعمر كأديب كبير أن يفضى بأسرار قلبه الى كتبه ودفاتره كما فعل في ذكرياته عن الصداقة في أيام الدراسة وقد أودعها دفاتره الأولى لكن ذكريات عمر في صدماته بقيت مطوية في دفتر نفسه وقد حملها معه الى التراب ، ولما طال به أساء وجد متنفسا لكربه بانفلات من محبسه الى الملاهي الليلية لعل فيها ما يخفف عنه الغموم حتى التقى عام ١٩٣٧ بغانية أجنبية استطاعت أن تعيد اليه نفسه الشاردة وتستدرجه الى الحياة الأدبية التي هجرها ، فعاد الى قلمه وأوراقه وانطلق بقلمه البليغ وحسسه الرهيف الى ينابيع الحياة يستقى منها لفنه وثقافته ويعتق من نطاق نفسه ومراسه الى نفوس الجماهير متأملا متسائلا واضعا لمشكلاتها وأطوارها حلولا وتفسيرا في ايجاز رائع يوميء ، اليها أكثر مما يضع الأصابع عليها .

وكانت الصحافة المجددة في لبنان بعد الثلاثين من هذا العصر

عنى بالحياة الأدبية الحديثة وتدعو للنقد الأدبي والفن القصصى الذى ظهرت بشائره وآثاره فى أقلام بعض المهوبين على ضفاف النيل وشطوط بيروت وقد جمع هؤلاء أقاصيصهم فى كتب مطبوعة ثم غدوا بعد حين من أعلام القصة كمحمود تيمور ويحيى حقى فى مصر وكرم ملح كرم و خليل تقى الدين وتوفيق يوسف عواد فى لبنان ، وكان الشيخ (١) فؤاد حبشى صاحب « المكشوف » من رواد التطور والتحرر فى الأدب والصحافة فدعا عمر فاخورى وصحبه من الكتاب والشعراء كالريحانى أمين وعمر فروخ ونجيب العقيقى ليشاركوا فى بناء الأدب الحديث وهدم طواحين الألفاظ وجعجعه الادعاء ، فاستجاب عمر وأمدته بمقالات نقدية وفكرية فيها ثورة وقدوة ، وفى عام ١٩٣٨ نشرت « المكشوف » وأول كتاب أدبى لعمر فاخورى اختار هو مقالاته التى نشر أكثرها فى أيام سعادته ، ومنها « كنوز الفقراء » التى صنعها عام ١٩٢٦ من أجل خطيبته « سلوى طباره » وقد سمي عمر كتابه هذا « الباب المرصود » فأثار ضجة فى الحياة الفكرية والنقدية ببلدان والعالم العربى وكان هذا الباب العمرى الذى كان مغلقا قد انفك عنه الرصد وانطلق من خلفه المارد الذى ضاق بالحبس والوحدة فرد الناس الى أديبهم الذى تفقدوه طويلا حتى وجدوه وما زادوه الا حبا وإيمانا بما كانوا يرتقبون من ابداعه وإطلاعه فقد زهدوا فى بضاعة الاجترار والزخرف والتمويه فكان فى « الباب المرصود » مفتاح العودة للأدب الحى فى صناعة فنية بلمحات الشعر ونظرات النقد والتمحيص التى تراحمت فى كتاب عمر ، ولم يتخل هو عن هذه الصياغة حتى فى مقالاته السياسية .

وبين عام وآخر كانت تظهر آثار عمر مطبوعة فى كتب خفيفة

(١) من الألقاب اللبنانية للدوى الاسر الكبيرة فى الجبل وليس للمشيخة

الحجم رخيصة الورق وقد ضمت مقالاته وخطبه وأحاديثه وحملت
العناوين الظريفة التي دلت على محتويات الكتب ومثلت مرحلة من
مراحل التطور والتحول في حياة عمر وأدبه، منها «الفصول الأربعة» و
« لا هواده » و « أديب في السوق » و « الحقيقة اللبنانية » وكان
آخرها قبل وفاته ، ولم تكن قيمة آثاره بحجومها وعددها بل بما
احتوت من آراء تحريرية وسطور تشع بالفكر المتوقد المتجدد ، الذي
يضيء ولا يحرق ، ويعبر عن شوق الشخصية العربية الى الحياة
الحرّة اللائقة ، فان ظروف السياسة ونفوذ الاستعمار كانا يعاديان
الحرية ، فكان عمر يمارسها ويحميها من الدواهي بأسلوبه المطبوع
ولباقته المعهودة ، وكان رسالته التي حملها في شبابه قد ألحت عليه
بأن يتحول في أدبه الى الشعب الذي كانت حاجته اليه تفوق حاجة
الفن الى ابداع عمر ، فان أدبه الرفيع كان تصويرا لحياة الشعب
والوطن على طريقته وتعبيرا في نقده وتهكمه عن الهموم التي تموج
في هذه الحياة وقد رأى عمر أن الحرية التي كافح في سبيلها هي
مسألة الشعب ومسألة العالم ، لها أصدقاؤها وأعداؤها في بلاده
وبلاد غيره فانصبت لعنته على من يعاديها في ذلك الحين وكانت
تتمثل في النازية والرجعية اللتين تهددان الفكر والمجتمع كما انصب
حبه على من كافح هاتين الآفتين . وحمل على الأدباء والمثقفين
الانعزاليين الذين فصلوا نفوسهم عن السياسة كأنها منفصلة عن
أدب الحياة ، فاعتزلوا الناس ، ورضى التخوف من مصابيحهم بهذا
الانفصال ، فثار عمر في جسمه النحيل وتفكيره العميق متحولا في
أدبه من التحليل والتأويل الى التحرير والتغيير قائلا لمن رددوا من
المتخاذلين « هي القوة لا قبل لنا بها هو القضاء فمن يدفعه ؟ والعين
لا تقاوم بالمخرز » ان التاريخ قد عرف حوارا دار بين تلك العين
وذلك المخرز .. ودائما كان ينبت للعين ظفر وناب .

بلغ عمر فاخوري هذا المدى في تطور أدبه وكفاحه وشغل وقته

فى الوظيفة وفى التبعات الفكرية الجديدة ولم تصده متاعبه عن الاستجابة لخطبة يلقيها فى ندوة أو حديث يشارك فيه صحبه ، وهو فى مشاغله أو فراغ وقته لم يكن فى نفسه مشغولا عن الأدب ، عن العمل الفنى التام الذى يضيف لبنة الى بناء الفكر ، اما النقد فيصقل ويهذب فى حجارة البناء القائمة (١) .

ومن الذى ترضى سجاياه كلها ، وبخاصة اذا كان اديبا مرموقا ، فان الأعين تتبع آثاره وخطاه اذا هفا أو كبا ؟

وكان عمر فى حياته الأدبية كما كان فى حياته الاجتماعية عفا اللسان والقلم يكره الثروة والحذقة وتخفى ابتسامته الدائمة ما يخفق فى صدره من قلق وألم ، وشعور لا يفارقه بالعزة والشمم لكنه على شعوره هذا كان لا يزهو بما صنع ولا يمن على أحد ولم يستطع حسود أن ينال من مكانته الأدبية والاجتماعية فى حياته وبعد وفاته لأنه بلغها بحق وإخلاص ولئن لجم الموت قلم عمر وعقل لسانه فانه ما لجم عقيدته ولا عقل حماسته ، فالأثنان تجريان فى دماء الكثير وعروقهم من أبناء اللغة التى أحبها عمر وأحبته والتى اعتزت بقلم أنيق وصادق ودقيق كقلمه (٢) ولم يكن خصب الانتاج والتأليف لأنه لم يتفرغ للأدب ولم يحترفه للكسب وقد دهمته الخيبات والنكبات فصرفته مدة عن معاناة التعبير الفنى الذى أتقنه وقدمه فى انتاجه ، وكان عمر يعانى فى توليد أفكاره وخوابره عسرا ، حتى اذا أبدعها جاءت سليمة قوية ، ولهذا كان مقلا لا يعجبه المقال اذا شردت فيه كلمة أو ضاعت فكرة أو جاء على مثال غيره ، فان قوة التعبير والتفكير فى أدب عمر قد استمدتها من سليلته وشخصيته التى ما كان يشاركه فيها أحد ، وهذه الشخصية ظاهرة

(١) فى مجلة الطريق عام ١٩٤٦ .

(٢) ميخائيل نعيمة .

فى الأسلوب والموضوع لكنها فى الأسلوب تجلت فى الطابع الذى نبغ فيه عمر وجعل منه كما قال صديقه الشيخ خليل تقى الدين « شيخ الأدباء فى هذا البلد بلا منازع ، وأحد أفرادهم المعدودين فى العربية » .

« ولو أوتى عمر من الجلد ما وهب من قوة الابتكار ، لكان للعربية منه أدب لا يدانيه أحد ، وقد طبع على الابداع ، وهو من أبعد الناس عن السير على الخطا التى مشاها الناس ، وانه ليشعرك حتى فى الموضوعات التى تناولها غيره من الكتاب بقوة الابتكار التى اشتملت عليها روحه .. » (١)

ومن نكد الدنيا أن يتصوح زهر عمر فى هجمة ربيع له جديد وهو فى ابان تألقه بالمجد والصداقة والفكر ، وصيحات الحرية والسيادة القومية بعد الاستقلال تناديه وتدعو أنداده للجهاد الأكبر ، فامتلات نفسه أملا جديدا قويا وعللها بغد كبير ، لكن داء الكبد أخذ يستل قوته ورزقه وهو يتشبث بالحياة ويلتمس العافية بالعلاج حتى اضطر الى بيع أغلى ما اقتنى فى حياته وهو مكتبته الحافلة بأروع مطبوعات الشرق والغرب مجلدة فى نسق واحد ليشترى بثمانها الدواء وما أجدى الفداء فان الموضوع هد قواه وطواه ، فوجم القوم لهذا المصير ، لكن حادث الموت فى نظر العقل والفلسفة أمر مكتوب لا بد منه للانسان مهما يعيش ويعمر سعيدا أو شقيا .

ومشت بيروت فى جنازة عمر فاخورى باكية فتاها الذى طلب الحياة وهو أشد ما يكون تعلقا بها لاكمال خطاه فقد رأى بعينه وأحس بقلبه وأعصابه مدى حب الشعب وتجاوبه معه لكن أجله الذى جاء فى ربيع عام ١٩٤٦ مشى به الى مرقدته الأخير حيث تلاقى روحه بمن فقدتها فى عز شبابه والتمس الفرار من نفسه وحزنه

الى الشعب يكتب من أجله ويخطب حتى تخطفه الموت ورقد تحت
السنديانة فى مقبرة الباشورة كما رقد صاحبه عمر الحيام بنيسابور
تحت سنديانة مشابهة .

واتفق أن الدكتور طه حسين كان غداة الدفن فى بيروت عائدا
من رحلة الصيف الى القاهرة فقال : « كادت هذه الزيارة تكون
صفوا كلها لولا انى سألت عن صديق لبنانى أديب كانت له فى
نفسى كما كانت له فى نفوس الأدباء الشرقيين جميعا مكانة ممتازة
ف قيل لى لقد دفناه بالأمس ، هنالك أخذ الندى كله وجوم طويل
لم نقل فى أثنائه شيئا ، وانما قالت قلوبنا فى أثنائه كل شيء ،
وما عسى كنا نستطيع أن نقول وقضاء الله أقوى وأمضى وأصرم من
أن نملك أمامه شيئا غير السكوت والاذعان ، وهذا الحزن الذى
يغنى القلوب ويضاعف ثروة العقول .

لم أقل شيئا ولم يقل أصحابى شيئا ، وانما اتخذت لهذا
الأديب اللبنانى العظيم قبرا فى ناحية من نواحي قلبى ، كما اتخذ
اللبنانيون له قبورا فى قلوبهم ، وكما احتفروا له قبرا فى مكان
ما من أرض لبنان (١) .

ولم يتخذ اللبنانيون وحدهم مدافن لعمر فاخورى فى قلوبهم
بل شارك العالم العربى فى هذا الحزن العميق وتنادى أعلامه وكبرائه
للتنويه بفضل الفقيه وذكره على اختلاف منازعهم الفكرية
والسياسية ، فأشادوا شعرا ونثرا بعمر فاخورى وأدبه الج
الصادق والوطنية المخلصة وجهاده الطويل الذى أعطى كثيرا ولم يأخذ
الا محبة الشعب وثقته وكان له فيهما العزاء بقلة الوفاء .

فاذا كان نصيب الأديب الحر فى حياته الكفاح لتحقيق ذاته وفكرته
فما أجدر أصدقاء عمر وتلاميذه بأن يكملوا بدايته ورسالته ، وأن

يلقى من المسئولين وهو حي دائب كل تكريم وتقدير ، فلا يمنح الوسام والجائزة بعد الغياب .

وما كان الموت الا غيبة طويلة فكان الأدب الحـالد بآثاره ومآثره قد سافر الى بلد بعيد فتدوم ذكراه فى كتبه وأفكاره كأنه ما زال باقيا على ترادف الاجيال ، وعمر فاخورى الذى قطع واحدا وخمسين عاما فى قطار الحياة ثم نزل فى المحطة قبل نهاية الطريق ، تعيش ذكراه فى القلوب والمسامع التى عرفتة وقرأته ، وكانت كتبه التى سبقت أوانها ونشرت بايامنا لا تزال دورة فى قمم لبنان ، فما أجدرها بطبعة واسعة جديدة بها بل ما أجدرها بالدراسة والتحليل حتى تعم آماد العربية والحرية وتنقل الى اللغات الأجنبية ، فليس من كتاب لعمر على ضالة حجمه هو دون كتب الطليعة من أدباء العرب ، والجيل العربى الصاعد مدعو لقراءة هذا الرائد الذى عاش للفكر والابداع وكافح من أجل الشعب حتى مات مثل شهيد سقط فى المعركة ، وكان عمر من قافلة الشهداء الأحياء اذ نجا لصغر سنه من مشانق الاستبداد العثمانى فى بيروت ودمشق فبقى فى معترك الحرية والحياة مجاهدا حتى لقي السابقين .

فى صحبة دائبة

أو صاحب عمر

لم يكن هذا الصاحب انسانا من لحم ودم وانما كان مانح
هذا الانسان نور القلب وسعادة الفكر والشعور .
كان هذا من صاحب عمر حين يصفو ويسمو واذا تكدر وعبثت
به الالهواء كان تلميذ ابليس ، انه الكتاب . .

على أن عمر فاخورى الذى تفتح وعيه على يد هذا الصاحب
الامين لم يستطع أن يفارقه فلزمه وكرمه ، وكان صاحبه وفيا له
ما جفاه حيا ولا أدخل الضيم عليه ، وهذا التعبير كان يؤثره الجاحظ
أبو عثمان ، وكان أبو عثمان شيخ الأدباء فى عصره صديقا صادقا
لعمر على تباعد الزمان فطبعه بمحبة الكتاب منذ أملى عليه فى مقدمة
كتابه « الحيوان » صفحات مشرقة شائقة فى وصف هذا الجليس
الأنيس الذى كان يتخذ فى القديم من رقاق الجلود ، وفى عصور
الحضارة تفننت المطبعة واليد الصناع فى اخراجه واغراء القارئ
بحمله وشرائه واتخاذة معلما ومؤانسا .

ولكل صحبة أسباب وحوافز تبقيها وتحييها ، أو تقطعها
وتنفيها ، وقد دلنا عمر فاخورى نفسه على بواعث هذه الصحبة ،
فحدثنا كيف غرس فى نفسه حب الكتاب وصحبة أستاذه علامة
بيروت مصطفى الغلايينى ، وحلل عمر هذا التعلق بالكتاب بطريقة
علمية فكان لا يغريه الكتاب بشكله ولونه وزخرفته فى اللفظ والاداء
اذا كان أجوف تافها ، وانما كان يدلف عمر بهذه المحبة والصحبة
الى فحوى الكتاب وموضوعه ، غير غافل عن أسلوبه وطريقته فى

التعبير ، وكان أول الطوايع المرتسمة فى أعماقه . كتاب الله الذى صدر عنه بلغاء العرب الى عصرنا ، واى كاتب بليغ أو خطيب مفوه لم يرد هذه الموارد العرآنية بقى متخلفا فى بيانه وأدائه ، وان استهوى الناس بتفكيره وابداعه .

لقد عكف عمر فاخورى على الكتاب العربى فى نشره وشعره وعلى اختلاف عصوره ، وجال بالفكر والمقارنة والتمحيص كل مجال فى التراث دون سآمة أو زهادة منذ صباه حتى فارق الدنيا ، ومن قوله فى الكتاب : « انى لا أعرف فى حياتنا من المباهج والملاذ كثمالة الكأس ما ليس يمازجه شيء من الخيبة أو الندم أو القلق خلا مباهج الكتاب وملاذه ، الكتاب الجيد الذى تقرأه أكثر من مرة فكل مرة يزيدك لذة وابتهاجا » (١) .

وبديهى أن يكون هذا الكتاب مختارا ومرجعاً ومأثورا أو كالموسوعة التى يجد فيها الكاتب والقارئ أشتات المعرفة ، وكان عمر يحسن الاختيار فى كتبه ، يقرأ ما يروقه ويطيب له ، ويطلع على كل جديد منها لكى لا يفوته رأى أو اتجاه أو موضوع ، وفى قوة شبابه واكبابه على الكتاب كان غواصا فى ذخائر العربية وأدبها ، فقرأ روائعها وعاش فى بيانها وتراثها ، يتبين الحقائق ويتذوق الطيبات ويعرف ما اندس فى بعض المؤلفات من تحريف وتزييف حتى رأى نفسه فى عكوفه على الكتب العربية « مدينا لها بأرغد شطر من عمره وان ما أعطاه الكتاب العربى فى ثقافته وحياته هو أبعد غورا وألصق بسويدائه وأكثر شمولاً وأبقى على الأيام وأصفى جوهرها وأسمى من كل ما عداه » (٢) .

وما أروع حديث عمر عن هذا الكتاب الذى أحبه وصاحبه ولم

(١) ، (٢) ص ٨ من الحقيقة اللبنانية لعمر فاخورى .

يكن يفترق في ذهنه عن صورة لأستاذه الغلاييني (١) وهو فتى في أول عهده بالتدريس وعمر في أول عهده بالدراسة . وكان عمر ورفاقه يتعلمون العربية وقواعدها من أستاذهم الغلاييني وبنى مؤلفاته قبل أن تظهر مطبوعة وكانهم حضروا مولدها قبل أن يتداولها الألف في جميع الأقطار منذ ظهورها .

وكان عمر يعد الكتب التي أحبها وأفاد منها أساتذة صامتين أصحابهم في مؤلفاتهم وآثارهم وقبضوا له الحوار والنقد بحرية وحجة فلم يصخبوا أو يضجروا ، لأنهم أحسوا في عمر الاخلاص للمعرفة والوفاء لمعلميه ومن تلقى منهم الأدب والتربية ، ولم يقف عمر عند الكتاب العربي قانعا بثقافته كاتبا وقارئا ، فقد أحب الثقافة الغربية منذ تعلم الفرنسية والانكليزية وسائر تطور الفكر الأوروبي وبخاصة الفكر الفرنسي المعاصر ، فاقتنى مجموعات كاملة لأعلام الأدب القديم والحديث ، وكانت خزائن كتبه تزدهى بمؤلفات أناتول فرانس وأندريه جيد وغيرهما من رواد الفكرة التحررية ، بل كان عمر فاخوري وهو في صحبة الكتاب يسكن في بيته بمدينة من الكتب مثل صاحبه أناتول فرانس .

وقد تجلت آثار الكتاب العربي في أدب عمر وثقافته وشاقته النقلة حينما من الفرنسية الى العربية ، فنقل آراء أناتول فرانس ، وكتاب رومان رولان في سيرة مهاتما غاندي وغيرها من القصص والمقالات ، وفي كتابه « الفصول الأربعة » أنشأ حديثا طويلا (٢) حول شطر واحد من بيت واحد للمتنبي : « تناهى سكون الحسن في كاتما » وذلك في تصويره لحسناء فدلنا عمر فاخوري في تحليله هذا لسكون الحركة وسكون الحسن على تذوقه الفني الرفيع

(١) من رواد الطليعة الفكرية في نهضتنا الحديثة وكان شاعرا وأديبا ومعلما

وقاضيا .

(٢) القاه على المتخرجين من القسم الفرنسي في الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٠

واستمتاعه بأصدق الشعر وأعظمه معنى ، وساق عمر في مقارنة بارعة بين وصف الشاعر العربي الكبير وبين ما جاء في بعض الآراء الفلسفية عند العرب والفرنجة وساقه مثالا عريفا على السكون والحركة عند قاضي البصرة عبد الله بن سوار الذي كان يأتي مجلسه للنظر في قضايا الناس وقصصهم فيجلس محتبيا ولا يفك حبوته أو ينزل رجلا عن رجل حتى اذا الحت عليه ذبابة أخرجه من السكون الى الحركة ، ولما قارن عمر في حديثه عن المتنبي بين قول الشاعر وما قال المعلم الحكيم آلان بكتابه « نظام الفنون الجميلة » في القول والعمل وعلاقة الجمال بالحركة والسكون أمسك عمر بفكره وخاطره ميزان النقد والمقارنة بين الجاحظ والأديب الفرنسي آلان فرأهما على اختلاف الزمان والمكان والانسان والبيان ، ندين متفقين في التصوير والتعبير .

وهذا مثال من التمازج الفكري لدى عمر فاخوري بين الكتاب العربي والغربي ، رأيناه في سطور منسوبة لأصحابه ، لا كنفر من أدباء العرب الذين تلقوا ثقافة أوروبية أو أمريكية واذ بهم يعرفون اللحم والعظم من أبدان الكتب الأجنبية وينسبون ما أعجبهم منها لأنفسهم ليدخلوا الدسم على مؤلفاتهم الهزيلة ، وبقي عمر مصاحبا للكتب شرقية وغربية ناهلا من النبعين دون ارتواء ، ومنذا الذي يرتوى من ينابيع الكتب ، ومتى قال ناهل قد اكتفيت فقد بدأ جهله ..

كان المعلم الحكيم الفرنسي آلان الذي حدثنا عنه عمر فاخوري في محاضراته عن السكون والحركة يقول : يبقى أبدا الأديب والعالم والفيلسوف وكل مثقف تلميذا حتى يموت ، وكان آندره موروا تلميذ آلان وطائفة كبيرة من أدباء العصر في فرنسا تخرجوا على توجيه آلان الذي بدأ حياته مدرسا وأصبحت كتبه في نضج تفكيره واتساع آفاقه مدرسة خالدة كمدرسة أفلاطون .

وكذلك بقى عمر يتعلم ويقرأ حتى نهاية أيامه فما كان يرى
الا متأبطاً كتاباً او عاكفاً فى بيته على كتاب ولكم طال وقوفه ونظره
فى رفوف المكتبات وعلى أرصفة الشوارع فى بيروت وباريس حيث
استكمل ثقافته الحقوقية ، وكان رفاقه فى الغربية والدراسة
يعاينون فيه التعلق بالكتاب ، اذ كان يؤثره على الطعام ، فينقب
فى المكتبات عن طبعات شعبية ميسرة لأهم الكتب العالمية وربما
بات على الطوى فى سبيل كتاب باهظ الثمن ، فاذا أمسك به ضمه
الى صدره وأسرع فى خطاه كأنه مع حبيبته على موعد لقاء .

وروى صديقه الشاعر البيروتى صلاح البابيدي انه قرأ مع
عمر فاخورى فى باريس ديوان الحسن بن هانى فى حديقة عامة
فكانا يمضيان أصفى الساعات فى قراءة النواسى ، وكان اعجاب
عمر بشعره وهو فى تأملاته يفوق استمتاعه ببهجة الحديقة وفتون
الحسان .

ولم يشغل عمر حب الكتاب عن حب الحياة وهى معلمة
الاساتذة ومن لم يتلق من الحياة تجاريب العمر والفكر فما نفعه
درس ولا تحصيل .

وهنا يعوزنا تعبير علمى ساد فى عصرنا وهو أن العلم النظرى
وحده لا يفيد الا بالعمل والتطبيق ، ولهذا فان عمر فاخورى لم
ينطو على الكتاب ويعتزل الناس والحياة بل صاحب الكتب
والدفاتر ، وكانت الصدمات تجبسه فى بيته شهورا ، ثم تهدأ نفسه
فيخرج الى المجتمع ليمارس الحياة والتعلم فى مدرستها .

وكان يشوقه أن يتعبد الطبيعة وهى الأم الأولى للانسان ،
فما كان أرضى لنفسه من جلسة فى أحضان الطبيعة ، وقد دعاه
ذات صيف فريق من صحبه ، أهل الكشف فمضى معهم الى أفياء
الطبيعة ومجاليتها وعاش بين الكشافة يراهم فى الرياضة والمعيشة ،
فاكتشف سر التآلق الأدبى والفكرى فى هذا الأفق الطبيعى الذى

صفا ماؤه ورق هواؤه ، فدخل الى أعماق الانسان ليشره بأنه ابن الطبيعة ولكن من لحم ودم ، ومن ذلك الخين تهكم على الأديب القرطاسى الذى لا يخرج من دفتى الكتاب ولا يفهم سر الحياة ولا يتذوق مباحج الطبيعة ، وكل هذه الامور تبدلنا دلالة حقيقية على ان عمر فاخورى كان انسانا من لحم ودم وفكر حى قوى يريد أن يضم الى نفسه الوجود ليشره بأنه حقا موجود ، وقد التقى بعمله هذا من غير أن يشعر أو يتكلف الدراية مع الفيلسوف ديكارت الذى كان مبدؤه الفكرى هو (أفكر فاذن أنا موجود ..) .

فاذا رددت القول من اعجازه الى صدوره كما يرد الشعر فى البيت الواحد وجدت عمر فاخورى صدى شخصيتين عربيتين : المتنبى وأبى حيان التوحيدي ، فأبو الطيب جعل الكتاب خير جليس فى الأنام ، والتوحيدي ، عكف فى كتابه «الصدقة والصدى» على طبائع الناس فى المودة والاخاء ، وفاته أن يجعل الكتاب أكبر صديق حتى جاء عمر فاخورى وترامت عليه أرواح المفكرين وهى ساكنة فى الكتب لتجعل منه صاحبا خالدا ، وكانت هذه الأرواح تسوقه الى محبة الجماهير والاخلاص لحياتها ووعيها ، فنزل الى السوق والطريق لينهض بالشعب والأدب الى حياة تليق بالانسان وكرامة الأديب .

الفصل الثالث

من الأدب الى السياسة

كانت مغامرة رائعة وتجربة خطيرة ، اقدم عمر فاخوري الأديب المبدع والناقد المسدد على مزاولة السياسة في وطنه بيروت بعد صمت حزين طويل ، قطع فيه مراسا فكريا عميقا ثم وصله بعطاء فني حديث ، كانت فيه بشارة ابداع وتطور ملحوظ في الحياة الأدبية والقومية على صعيد لبنان .

ان ممارسة السياسة في البلاد العربية كانت ولا تزال في اصطلاح أكثر الناس مقصورة على محترفيها ممن داروا معها في مختلف وجوهها وعهودها متحزبين بالانتماء زمن الاحتلال وبعد الاستقلال ، أو منفردين مسنودين الى ما قبل الخمسين من هذا القرن ، فكيف أقدم أديب بيروت عمر فاخوري وهو في زهوة مجده واتساع صيته ومكانته على هذا الاتجاه الشائك الذي لا يسلم من الخطل والعثرات فيه الا القليل ؟ ..

ذلك أن السياسة التي قال عنها الامام محمد عبده في عصره « ما دخلت شيئا الا أفسدته » كانت تمثلها من ذلك الحين الى أيام عمر فاخوري في مصر والبلاد العربية فئات من بينات معروفة بالاقطاع والعشائرية والزعامة المتوارثة ، بينها أكفاء علماء وعملا وأكثرها توابع وأصدياء .

وقد تداولتها أطوار الحكم ، لمسيرة الأمور ومفاوضة البارزين

كلما جد الجد في هذه الغضبات الشعبية المتوالية لحرية الوطن
وكرامته واستعادة حقوقه وسيادته .

وكان عمر فاخوري الذي شهد صباه فظائع الاستبداد
العثماني من الشباب العربي الناقم على هذا الحكم الأسود ، فبدأ
في أدبه مكافحا سياسيا على الحداثة والحماسة المبكرة في المنازع
الاستقلالية ، ثم شغلته الدراسة والوظيفة عن السياسة حيناً ،
فاتخذ الأدب وسيلة للكفاح ، على أنه لم يكن في فنه الذي استغرق
مواهبه وطاقاته حاضرا كالغائب أو في غفلة عن الدنيا وما فيها
كالنائم المفتوح العينين ، بل كان يربط بين أدبه وحياة الناس ،
والأدب في أيامه كان لفظيا تقليديا يشكو أهله من حرقة وشقوق
الأقلام التي يقطر منها الرزق الشحيح إذا لم يستعينوا عليه
بالصحافة أو التعليم .

فلما ظهر عمر بأدبه الحي الصادق وأفكاره التحررية والثورية
تلفت القراء صوبه بالمحبة والبشرى ، وأحس الجمهور الواعي ان
هذا الأديب ليس كغيره من الأدباء في أسلوبه وآرائه ، ولا في
صوره ومعانيه ، ولم يكن عجباً أن يدرك القراء في شعب قلت فيه
الأمية والعامية الدهمائية أن عمر الكاتب البليغ في غير تنطع
ولا ترفع ، المتعمق في غير غموض أو تعقيد ، هو الزعيم الفكري
للمثقفين والمتنورين في بلاده ، وان كان عمر زاهدا بطبعه وطريقته
في الظهور بنفسه ، فان أدبه وحده كان يدل على حقيقته وجدارته
ويجعل منه الصديق الصادق للجماهير والرائد للحركة التجديدية .

وكان القارئ منها يحس احساسا قويا بأن أديبه عمر
لا يتملقه أو يسليه بفكرة فارغة أو يستهويه بعامية مبتذلة أو قصة
ماجنة تصرفه عن مقومات حياته وإنسانيته ، بل كان يرفع وعي
القارئ اليه غير متكلف ولا واعظ ، فالأسلوب العمري كان نسيج
وحده فيما احتوى من رأي وثقافة ونقد ، وكان لاتصال هذا الأديب

بالشعب وانهماكه بشئونه وحياته أثر فى تفرد به بمخاطبة الجماهير على قدر وعيها وفهمها دون أن ينزل بقلمه وتعبيره الى ركافة أو تفاهة فقد عرف كيف يستهوى الناس بفنه وأدائه . حتى أخذت تتجاوب معه وتلقاه بذاته وآثاره فتزداد ايمانا بمواهبه ورسالته .

وكان عمر فاخورى يحس السعادة وهو يرى طائفة من الشعب متهمة بأنها لا تفهم الادب الرفيع ولا تتذوقه هى نفسها التى تستمع له محدثا وخطيبا وتقرؤه ناقدًا وأديبا وقد شاقها أن تجد نفسها فى أدبه الحى ، الصادق التعبير والتصوير .

وما كان يغيب عن أديب بيروت أن قراءه من هذه الجماهير المتفاوتة فى تحصيلها وثقافتها ومفاهيمها الاجتماعية والفكرية فقال عنها فى احدى مقالاته :

(لا مناص للأديب من أن يعرف حاجة الجمهور وطلبه ، ولكن أى جمهور ؟ هل ثمة جمهور واحد أم جماهير مختلفة ؟ .. ان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة أبى زيد الهلالي - وأمثالها وبين الذين تسمو نفوسهم الى «لزوميات المعرى» وأشباهاها جد بعيدة ، ولا أحسب أبا زيد هذا مهما يكثر عديده ، قادرا ذات يوم على قتل المعرى ، ولا المعرى يقتل أبا زيد ، فكلاهما ضرورة للناس ، والادب فى كل أمة وكل عصر يظل بين هؤلاء وهؤلاء متجاذبا ، كل يشد الى ناحيته - ويعمل على شاكلته) .

وكان الناس فى عهد عمر يحسبونه أديبا للخاصة وان قراءة لم يكن فيهم الا القليل من العامة ، وقد فاتهم أن فى أوساط الجماهير عقولا متباينة فى الفهم والعلم تتلقى بالسماع والاطلاع آيات القرآن وروائع البيان وأحاديث المذيع بوعى عميق وتأمل طويل فيما احتوت من المعانى والصور ، فلا بدع اذا تصدى عمر لمحاورة الجماهير فيما يهمها أمره ، وكانت الامور ما بين الثلاثين والاربعين من هذا العصر مشتدة فى الشرق والغرب وهى التى حفزته للتحول فى أدبه ، فان

الحرب العالمية الثانية أعادته الى قلمه وبيانه مجندا للحرية والديمقراطية كما أعدته الأولى مكافحا على حدائته فلم يجد عمر مناصا من الانصراف الى السياسة ملتزما برسائلته دون أن يتخلى عن فنه وأدبه ، فاتخذ من السياسة مدرسة فكرية جديدة ودعا الادباء للانطلاق من عزلتهم ليكون لهم رأى وموقف ونظرات فيما يبدو لهم من شئون بلادهم ومن القضايا العالمية .

وكانت السانحة لعمر ملائمة فى هذا الصدد للكلام على أدباء الحبر والورق الذين يعيشون فى معزل عن الجمهور ، فاذا قىض لأحدهم نهضة أو موسم بادر الى الظهور على المنبر بقصيدة أو خطبة لا تتغير معانيها مهما يتغير الحاضرون الذين كانوا يتململون من التكرار والعبث فى الأوتار فينصرف الناس وهم أشد ظمأ الى الينابيع .

وكان أدباء القوطاس يتجافون عن الينابيع ، فتهكم عليهم عمر بسخرية أدارها على نفسه قبل غيره ، فتحدث عن رهين الكتاب الذى كان فيه حتى خرج من محبسه كما تخرج فراشة الحرير من شرنقتها فتتنفس الهواء الطلق وانطلق الى السوق والطريق متسائلا متأملا ، مكررا انفلاته من وحدته موثقا ارتباطه بزمنه ووطنه والمجتمع الذى يعيش فيه ، ثم يعود بالملامة على أدباء المداد الذين اعتكفوا فى بروجهم وزواياهم مؤثرين السلامة والعافية ، « لا أذن تسمع ولا عين تدمع ، مصرين على أنهم من الأدباء ولكن من النسخ المتشابهة ، ولما ترامى اليهم أن عمر انصرف الى السياسة هالهم هذا التحول والتنازل فقالوا « ان الكتاب والشعراء هم « حفظة القيم الانسانية الباقية » وخالقو المثل العليا فلا ينبغى لهم أن يسفوا أو يبتذلوا أو يتعرضوا لما لا يعنيههم » .

وكانت السخرية العمرية من هؤلاء المعتزلين استعلاء وتخوفا ووهما ، حديث الناس فى أدب عمر الذى لم يتغير ، وهو يتحول الى السياسة التى أراد أن يرفع من شأنها ويجعلها بأيدى الذين يتطلعون

فى خطاهم نحو المثل العليا ويحققون بالقـدوة والدعوة كل خير
لامتهم وما ينبغى لها من تعزيز وتقويم لحياتها ونهضتها .

ان عمر فاخورى لم يبق فى كفاحه السياسى دائرا حول البناء
الجديد لوطنه المستقل وسيادة الشعب المستقل الممثل فى الجماهير
على السواء ، « لا لملة أو نحلة أو مذهب دون مذهب » فقد أخذ عمر
يشير فى خواطره اللماحة الى العلة الوبيلة الكامنة بالطائفية والاقلية
اللتين نماهما استعمار بعد استعمار ونفخ فيها من نفسه ودسه ،
غير ان عمر فاخورى الذى عقد الامل الاكبر على رجال الاستقلال بأن
يكافحوا الاستغلال فى عهدهم وميثاقهم رأى ان الجهاد فى هذا
السبيل كفيل بالوحدة الوطنية التى يعوزها بعد الجلاء « مصنعان
جديدان هما الثكنة والمدرسة ، على ألا يقوما على الأساس «المزمن» .

ولما تمرس عمر بالسياسة وآفاقها لم تكن مقالاته فيها ونقده
بدعا فى محتواها وأدائها وإنما كانت جدية ودية تطيب لقارئه من
مختلف الفئات المتفاوتة فهما وعلما لما فيها من صدق التهكم والدعابة
ودقة التعبير والمعرفة ، ولو لم يكتب عمر مقالاته السياسية على
سجيته المعهودة وأسلوبه فى الإيجاز الملىء الذى لا يعرف حشوا ولا
لغوا لكانت هذه المقالات كغيرها من المقالات الصحافية والثقافية ،
ولم يكف عمر وهو فى ساحة السياسة عن رمى المتوجسين والمنتشائمين
بسخريته المستحبة ، فازداد عدد اللوامين الذين شق عليهم أن يرهق
عمر نفسه بالسياسة وهو فى غنى عنها ، وهم لا حديث لهم يخلو
منها ، وقد فاتهم ان كبار الساسة فى الغرب هم من الادباء والحقوقيين
والمفكرين حتى العلماء ، فان مختبراتهم كانت تطل على تصاريـف
السياسة فى بلادهم كهنرى بوانكاريه - العالم أخى ريمون بوانكاريه
من الرؤساء السابقين للجمهورية الفرنسية ومن أعضاء الاكاديميات
سياسيون لهم آراؤهم ومشاركتهم فى الحكم والسياسة ، وفى
المسائل المحلية والعالمية فما ضاق بهم الشعب أو استنكر تمرسهم

بمقاليد الأمور ، وكيف غاب عن ناقدى عمر فاخورى أن أكبر أدباء مصر فى عصر عمر كانوا من السياسيين الحزبيين كطه حسين الذى انغمس فى السياسة ودخل حزبية بعد حزبية وعباس محمود العقاد الذى عرفته السياسة قبل عمر ناقدا عنيفا فى صحف كبرى وفى حزبية قوية وله مواقف فى تاريخه النضالى مشهودة مسئولة ، ولم يغب عن الناس ذكر الاديب الرائد محمد حسين هيكل الذى وصل بالسياسة الى الوزارة ومجلس الشيوخ ، وغير هؤلاء الرواد من الثائرين فى الادب ، كان كثير من المفكرين المصريين يزاولون السياسة على طريقتهم وربما لم يلمعوا فى ساحتها كما لمع البارزون الذين شاركوا فى بناء الادب الحديث نقدا وتأليفا وتدريسا ، وكان لسبقهم فى الاصلاح والتغيير فى مجال القديم والجديد أثر عميق فى تطور الفكر والثقافة والتعبير .

فهل كانت نقمة النقاد على عمر فاخورى لاشتغاله بالسياسة خشية سبقه الى ما كانوا هم أنفسهم يتوقون اليه فى حياتهم وكان فى النيابة والوزارة من عرفوا فى وطنه بالحياة الادبية والفكرية ، فلم يلقوا من الغمز واللمز ما لقي عمر الاديب الذى تطور فى أدبه وتغير فى كفاحه ورأيه ، فاندفع فى مقالاته النقدية مستطلعا ما وراء السياسة التقليدية من أمور مريبة تخدع الناس وتجعل منهم مطايا للمتزعمين والحاكمين ، وكانت كوارث الحرب الثانية وما جر على الانسانية طواغيت النازية مدار كلامه الجديد الذى حمل للناس ايمانه بالدول الديمقراطية ومنها السوفياتية التى كافحت الطغيان ، وقد جمع الفاخورى هذه المقالات فى كتابه « لا هوادة » وكانت سياسته لا تريد هوادة فى هذه المكافحة التى شغلت العالم فى ذلك الحين .

على ان هذه المشاغل العالمية لم تصرفه يوما عما كان يجرى فى الفلك الذى يعيش فيه وقد عاصر وجوها ورءوسا ما كانت تغيب حيننا عن مسرح السياسة حتى تعود بعد حين فىرى المعارك التمثيلية

والمنافذ الخلفية والجسور المعلقة للعبور والظهور ، والبلاد تتحرر
وتتطور لحكم نفسها بنفسها وتستبشر بجلاء الاحتلال وأخذ الحق
والاستقلال . من يدري فقد تقيض الظروف الجديدة لعمر فاخوري
أن يبرز في ساحته الجديدة ويدون حيث تآقت نفسه واندفع طموحه
الى مجال يحقق فيه ما كان يريد في أدبه لشعبه ، ولم يجد هو ذاته
جديدا في السياسة التي زاولها متطوعا مندفعاً فما ينبغي للأديب
المرتبط بالجماهير والمنغمس في حياتها وهمومها أن ينأى عنها فمن
الذي زعم بأن الفن يجب أن يغضى عن المساوىء ، ومن ادعى بأن
الأدب رداء ينبغي أن يلقي على الشوائب والانحراف ؟ وهل كان
الأديب أو الفنان الا رجلا من أمة وعضوا في مجتمع كعقرب الساعة
على الأكثر ؟ . انه متكلم بلغتنا ويستمد من بيئتنا ويعيش في
جوننا ؟ هو ابن جغرافيته وتاريخه ، هو يأخذ فكيف لا يعطي ؟ (١) .
وكان عطاء عمر من فكره وشعوره ومن وطنيته وآثاره لا يقدر
وهو الذي أخذت منه الصدمات والخيبات سعادته وحرمة الاقدار
موددة الزوجة وأنس الولد ، فما كان منانا بعطائه ولا ضنيننا بحياته
للشعب والوطن بعد أن وهب لهما أدبه وكفاحه .

فاذا طال التساؤل عما دهاه في عراكه الجديد وجدنا الاجابة
من عمر نفسه في قوله : « ما العمل ونحن أناس للحق والعدل
والحرية قيمة عندهم ترجح كفته في ميزان ليس أقل دقة من هذا
الميزان الذي توزن به الطيبات من الفاكهة وغيرها فلا أقل من أن
نؤيد بالقلب واللسان أولئك الذين ينتصرون للحق والعدل والحرية
في العالم » .

« ما العمل اذا كان لنا رأى في كيف يجب أن تساس الافراد
والجماعات وكان لنا نظر في المبادئ التي ينبغي أن توطد وفقا لها
علاقات بعضهم ببعض » .

« ما العمل اذا كان ثمة مثل أعلى لحياة الافراد والجماعات
ينعمون كلما قطعوا شوطا نحو تحقيقه بأكثر ما يمكن من الخير
والصلاح والطمأنينة ، وقد استهوانا هذا المثل الأعلى وشغف قلوبنا ،
فنحن راضون بأن نرسم خطى قافلة الرسل والحكماء والمصلحين ،
ولا بدع اذا اقتدى عمر الاديب فى نضاله الجديد بذوى الرسائل
والحكمة والاصلاح ، فالادباء والمفكرون طالما مشوا على آثار المرسلين
والرواد فى كل عصر ، ولعل عمر فاخورى تأثر بآراء أفلاطون وأراد
أن يكون كأنداده فى الشرق والغرب من الطليعة القيادية فى الشعب
تنقد لتقوم الاعوجاج وتحمل مصباح الفكر والبيان لىضئ طريق
الحرية وتعبّر عن الحياة الديمقراطية بكل ما تحمل من المعاني
والصور ، وليس على الاديب حرج فى أن يتناول القضايا السياسية
بقلمه تحليليا أو نقدا ، فهذه القضايا تمس الجماهير ، وكانت هذه
الكلمة المحببة الى عمر لا يخلو مقال له منها مستهزئا بمن داروا عليها
بأشتات التأويل والتعليل ، وكأن من يسمون أنفسهم « الخاصة »
ليسوا من أهلها فتهكم عمر بالمترفين الصلفين الذين ضاقوا بمقالاته
السياسية ورأوا ما يتوهج بين سطورها من حماسة للديمقراطية
زيفا فسموه ظلما ووصموه وهما ، وقد أراد أن يتناول بسخريته
هؤلاء الحكريين المستأثرين فقال : ان أغلبية من هذه الفئة قد فتحت
أبصارها على ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الأفق
بشيء من الذعر وكثير من الدهشة ، فلطالما اصطلحنا على تنحية
« العامة » من ميادين الحياة العامة بما تمثله هذه الحياة من ضروب
الادارة وأدوات الحكم وتصنيف العلاقات وتوزيع الخيرات وتقرير
التكاليف ، كأن هذا جميعه متاع هؤلاء « الخاصة » ليس ينازعهم فيه
منازع : لا شركة « للعامة » فى الحياة العامة ..

وقد عابت عليه هذه الفئة القليلة نزوله الى الجماهير مكافحا
سياسيا فقال لمن سألوه : مالك وللسياسة ؟ .. - غفر الله لكم ..

وحلف عمر فاخوري « بأن ليس بين هؤلاء الناصحين المخلصين الذين يسولون لي ترك السياسة من لا يشتغل بالسياسة ، يشتغل فيها جهده ، وفي الدائرة التي تتاح له ، وعلى الطريقة التي لا يملك سواها .. »

وقال عمر : « وأعجب ما في القضية اني لم أجد من هو على رأيي ومذهبي السياسي لأعزى نفسي موهما اياها بأن النصيحة خالصة لوجه الله » وبين السياسة الذين كان يراهم عمر مخلصين من حللوا لأنفسهم ما حرموه على عمر فعابوا عليه دخول «الهيكل المظلم» الذي ترتع فيه السياسة بما فيها من عتمة خافوا أن يبدها وكانت من مقتضياتها ، لكن عمر الهمام المقدم لم يقف أو يتراجع في كفاحه وتجاربه فأحب كل من عادى أعداء النازية ومنازعيهم العنصرية والاستعمارية .

ومثلما صنع عمر فاخوري الأديب اللبناني في التشنيع على طغيان النازية كان الأديب المصري عباس محمود العقاد يستفظع بمقالاته النارية هذه الآفة التي اجتاحت العالم ، ولم يستطع انتصار السوفييات على النازية أن يجعله من الأصدقاء ، بل عاش عدواً للشيوعية يؤلف الكتب ضدها ويحذر منها ، ولعل عمر فاخوري في آرائه الاشتراكية بدأ من حيث انتهى العقاد فيما أراد من الاشتراكية ، فقد دعا أديب مصر عام ١٩٢٢ « إلى مبادئ ديمقراطية مما لا يتنافى مع الاشتراكية التي هي استجابة لحاجة اجتماعية عرفها التاريخ وطلبتها الإنسانية قبل أن تبشر بها تعاليم الدين والمفكرين ، وليست هي بعلمية أو مذهبية كما أعلنها ذووها من الفلاسفة والجدلين ، على أن العقاد بعد استنكاره للشيوعية ما كان يرتد عن خير ما في المبادئ الاشتراكية التي تتطلبها الضرورة ومقتضيات العصر والتطور . »

ولعل عمر فاخورى الذى تحرك احساسه الوطنى عنيفا مبكرا
فى ثورته المكبوتة ونفس عنها بياكورة قلمه «كيف ينهض العرب»،
كانت فكرته الوطنية متعلقة بنزعته الانسانية التى تنفس بها وعبر
عنها أدباء الطليعة والقومية العربية فى نهضتنا الحديثة . وكان عمر
من هؤلاء المفكرين الذين تغلبت على ثورتهم التحررية المنازع الانسانية،
فما أسفه أمر كما أسفه تخلف الأمة عن ركب الحضارة المعاصرة لما
أصابها من طغيان استعمار بعد استعمار ، فكانت مظاهر التعسف
والتخلف تحز فى نفسه فيستمد منها وهو أديب متصل بال جماهير
عناصر مقالاته النقدية حتى تحول من الأدب الفنى الى السياسة
مكافحا فى عراكها ، وطنيا اشتراكيا على طريقته ووفق آرائه
ومفهومه ، وكانت الجماهير تفهم الاشتراكية بحسب حاجاتها
واتجاهاتها ، فلم يحددها فى اطار أو ضمن شعار ، بل كانت هذه
الاشتراكية عنده متفاوتة المعانى والصور بتفاوت الحاجة والاتجاه
فى التفكير والبناء .

وكان عمر فاخورى بنزعته الوطنية والانسانية أديبا اشتراكيا
سابقا أنداده بأشواقه وتطلعاته الى الأسباب والأدوات التى تبني
« المدينة الفاضلة » حقا وصدقا لا بالوعود والاحلام .

وكانت البطولة السوفياتية من أسباب صداقته لأهلها واعجابه
بثورتها التى حطمت باب « سجن الأمم » وأطلقت القوميات من
أصفادها والمذاهب الدينية من خوف الاضطهاد ، لا يستغل قوم
قوما ، تلك هى المساواة فى الحرية (١) « وأن ليس للانسان الا ما
سعى » فى تلك البلاد النائية الغامضة التى أخذت تبني شعبها على
قواعد جديدة فى الحياة العادلة الفاضلة ، وأن اتحادها قوة تنشد
سلما عالميا تعامل فيه الشعوب والأمم على قدم المساواة ، فهو خطوة

(١) ص ٢٢ الاتحاد السوفياتى حجر الزاوية لعمر فاخورى .

واسعة بل قفزة قفزها التاريخ نحو المثل العليا حاملا في صدره التراث القديم ، تراث الشوق الى المدينة الفاضلة » .

« ان المبدأ الأساسى القائل بأن الانسان هو محور العالم وأنه أئتم ما فيه وان مبادئ الثورات الانكليزية والامريكية والفرنسية وأن النهضة العلمية التى تستهدف السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخير الناس ، كل هذه العناصر قد اجتمعت كأنها على موعد لقاء فى نظام الاتحاد السوفياتى ، انه حجر الزاوية فى بناء العالم الجديد والانسانية الجديدة » .

فى مثل هذه الآراء والصور التى استهوت عمر فاخورى كان يفكر ويتدبر ، انه يعشق الديمقراطية والقيم الانسانية وقد قيل له : « انهما فى حى الاتحاد سائدان موطنان يعطيان الناس أوثق الضمانات وأبقاها على أن الحرية للأفراد وللشعب ستكون أوسع وأشمل والمساواة بين الأفراد وبين الشعوب ستكون أصح وأصرح » . فازداد عمر تقديرا لمن يسعى الى حرية الأفراد والشعوب .

وعلى هذا النحو من الاتجاه الفكرى بنى عمر فاخورى وصحبه صداقة جديدة نحو الاتحاد السوفياتى ، صداقة الأنداد لا الأتباع ، فقد تخيلوا « الاتحاد » صورة مصغرة رائعة لما يجب ان تكون عليه دنيا الغد حيث تتبوأ لبنان وسائر الأقطار العربية مكانتها المشروعة ويعيش اللبنانيون والعرب جميعا كشعوب حرة مستقلة آمنة سعيدة » . (١) .

هذه خطرات من سيرة التحول فى أدب عمر فاخورى الى الكفاح السياسى الذى عاناه وانصرف اليه وكابد فيه العناء واللوم والاتهام ، على أنه كان يلقي العزاء والرجاء فيمن منحوه الثقة والصداقة وأعدوه للغد المرصود ، وهو الذى فك الرصد عن يانه فى الأدب وانطلق مع الجماهير الى بنابيعها التى فاضت بالفن والحياة ، وما أكثر

(١) من أقوال عمر فى هذه الصداقة .

ما رأى عمر نفسه كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بغتة وقد ضم الى صدره كتابا ، والى خاطره رأيا فأسرع فى خطاه كأنه وحييته على موعد لقاء ، وما كانت حبيبته متمثلة بعد التى غاب وجهها عن بيته الا فى الجماهير التى استيقظت على غير ميعاد ، وكان عمر يحمل لها الطمأنينة والأمل والمحبة ، وطالما بحثت عن مثله بمصباح ديوجين فأرهقها الظمأ والتلف حتى وجدت عمر ، ووجد هو نفسه حيث كان طموحه القديم فى هذا اللقاء الجديد .

لقد اقتحم عمر معترك السياسة بقلمه وإيمانه ، ولم يحمل سلاحا حزبيا أو مذهبيا ، فكانت تجربة السياسة قاسية وغالية قدم ثمنها من لحمه ودمه ومن حلمه وصبره ، وقد يكون حمل عليها مغبونا أو موعودا .

فمن المآخذ المحسوبة على عمر فاخورى فى تحوله من الأدب الى السياسة أنه بقى وفيا لثقافته الفرنسية منوها بجهاد شعبها فى الحرب العالمية الثانية وتعلقه بالمثل العليا وأنه يحمل على كاهله أعظم تراث ثورى عرفه التاريخ (١) فى حين كانت بلاد عمر وجيرانه وثورة الجزائر ماضية فى نضالها للتحرر من الاحتلال الفرنسى ، لكن عمر الذى تحول سياسيا متطوعا لم يشأ أن يكون عنيفا طاعنا من خلف فى حكم مدحور شارك فى مناوأة النازية من باعوا وعدا باطلا للصهيونية باغتصاب فلسطين من أهلها ، بعد جلائهم عنها عام ١٩٤٧ فعاد عمر أعداء النازية من الحلفاء أصدقاء للحرية التى ضنوا بها واستكثروها على البلاد العربية ، فكانت ورطة من عمر ما كان أغناه عنها وهو الذى سلمت وطنيته من الشبهات .

ومهما تكن هذه الهفوة السياسية من عمر فاخورى أو بالأحرى النبوة التى آخذ بها نقاده ممن لم يعجبهم انهماكه فى السياسة ، فانه بقى فيها أدبيا مهذب القلم عف البيان ، صادق الوطنية ، ولم

يكن متندما فى تجوله الى ما كان يخشاه المتوجسون فى معترك
محموم ، اذ كان عمر مقداما يريد أن ينشئ للمفكرين والمثقفين
مدرسة سياسية جديدة فى عهد بلاده الجديد ليكونوا قوة فعالة فى
بناء المجتمع وتحرير العقول ، وما أشبه عمر فاخورى الأديب
السياسى الاشتراكى فى رسالته الفكرية بما صنع من قبل أعلام
المذاهب البانية للانسانية ، فقد التف حوله أصدقاؤه من الأدباء
والنقاد واعتنقوا الرأى الذى أخذ به عمر فى حياته وكفاحه وتابعوا
المسير فى دربه الطويل .



مركز تحقيقات كميونير علوم اسلامى

النياحة الخائبة

- ١ -

لم يعبا عمر فاخوري بما تقول عليه المرجفون فى السياسة والأدب منذ انضم الى اخوته المكافحين عدوان النازية والفاشية فى الحرب العالمية الثانية ، شارك فى تقديم المقالات لمجلة « الطريق اليسارية » وكانت أقواله كما عرفها القراء منشورة فى المجلة أو مجموعة فى كتب لا تحمل أية دعوة شيوعية ، وكانوا يخلطون بين اليسارية والاشتراكية ، فلما رعب عمر بصدقة الشعوب الحرة ومنها الاتحاد السوفياتى وجد المرجفون مجالا للغمز واللمز ، فما قابلهما الأديب الجر بغير التهكم والاستهزاء . وما كانت صداقته الصادقة وليدة المحاكاة والعديى أو الفكرة الطارئة ، بل كانت تبعا لبطولة قضت على باطل فى النازية والفاشية فاستهوت عمر أخبار هذه البطولة ومنابتها وما يجرى فى آفاقها من تطور وتغير فيما يحقق الخير العام ، حتى خيل الى عمر أن « المدينة الفاضلة » قد قامت فى تلك الأرجاء النائية التى أنبتت تولستوى وتورغنيف وبوشكين وغوركى وغيرهم من أدباء الانسانية والحرية .

وكان عمر فى كفاحه السياسى كدأبه فى أدبه يكتب على سجيته ومن وجهة نظره وشعوره غير هياب ولا متردد ، فرصانته وحكمته كانتا وراء تعبيره وتمحيصه ولم تجرؤ صحيفة مأجورة على أن تجره فى تيارها أو تستغل أدبه لمآربها ، فعمر فاخورى الأديب الصادق كان يكره المداجاة والمصانعة ويتجافى عن الصحف التى تتلون فى الظروف والأحداث وتتفنن فى الرياء والادعاء ، اما التى

الترمت وجهة وطنية وثقافية فقد كان يرتجئها خير الوطن والجماهير
ويمدها بمقالاته وأحاديثه ولا يفتر عن تتبع الصحف العربية
والأجنبية ، فيتجنب المريب منها والمبتذل ، على أنه لا يدري كيف
وصلت الى بيته ذات يوم صحيفة متواضعة محتشمة كحسنة فقيرة
تحترم ذاتها ..

لم تكن هذه الجريدة الصغيرة تحمل اسم المسئول عنها أو المدير
لتحريرها ونشرها فيقبل عليها بشوق ولهفة ، وكأنها رسالة خاصة
فتختلط في ذهنه صور وخواطر لا يعرف كيف يبتدىء في حوادثها
وكيف ينتهى منها ، اذ كان لها في الجريدة المتواضعة معنى جديد
وصدى غريب وكأنه ينظر اليها من زاوية غير مألوفة ولا مبتذلة
لكنها الزاوية « المستقيمة » الصحيحة ، منها يسعى في السبيل
الأقوم الى الغاية الأسمى ، تلك الصحيفة هي آخر مدرسة تعلم
فيها عمر كما قال « سداد الفكر وصدق العمل » سواء في اعلانها
على النازي حربا لا هوادة فيها أم في صمودها للدفاع عن خبز
الشعب وحرية وسلامته » (١) .

تلك الصحيفة الصغيرة المحتشمة هي « صوت الشعب »
الهاديء الصاحب والحفيظ المدوي بصدقه وحقه ، فعرف عمر بعد
حين أن بين الذين أنشئوها مفكرين ثائرين منهم « خالد بكداش » (٢)
وبعض رفاقه « يضطهدون في السجن أو يطاردون فيما هو أضيق
من السجن لكن صوته لم يحبس وجهادهم لم يكتم ونورهم لم
يطفأ ، كانت أصدا من الصوت المدوي ومآثر من الجهاد الدامي
وأشعة من الضياء المحيي تملأ بيت عمر وتشغف نفسه وتنير
بصيرته .. »

(١) الحقيقة اللبنانية

(٢) من زعماء الشيوعية في الشرق العربي منته دمشق وقد انتخب نائبا

في مجلس النواب السوري .

فى ذلك العهد القائم الرابع الذى ملأ الدنيا تهاويل نازية ومكايد استعمارية ، كان عمر فاخورى يقرأ أية صحيفة تتحدث عن الحرية والشعب . وفى ذلك العهد . . قال عمر فاخورى فى مقاله عن « صوت الشعب » وأصحاب الصحيفة : « لم أكن أعرف خالد بكداش ورفاقه ، كان ينبغى لى أعرفهم أن أمسى سجيناً متطوعاً ، أو طريداً مختاراً ، وليس هذا بالأمر السهل نظرياً أو منطقياً على الأقل ، ثم جاء عهد أحسن حالا ، عهد مايزال فى تحسن ، كالمرضى الذى يتمثل الى العافية ، ومن أياديه عندى أنى عرفت فيه خالد بكداش الخطيب الذى يخلق كالنسر فى آفاق الفكر والبيان » (١) . عرفت خالد بكداش ورفاقه الكثيرين اليوم والأكثرين غداً ، الذين يعملون كالنمل ، ويجنون كالنحل ، ويمشون كالجنود الأبطال فى سبيل أمتهم وحقها فى الحياة الحرة الرعدة الآمنة ، لقد علمونى بالكلمة والمثل أن المولعين بحب الحرية لا يرجعون برغمهم خطوة الى وراء الا ليقفروا خطوتين الى أمام » (٢) .

كذلك قال عمر فاخورى فى أحباب الحرية المؤمنين بالمبادئ والقيم التى كان ولا يزال يناضل من أجلها « وهى التى تجعل للحياة قيمة ، بل لا قيمة للحياة بدونها » فألى عمر على نفسه أن يبقى على هذا المبدأ مهما يعترضه من داء وبلاء ، انه يريد أن يحقق بالعمل ما دعا اليه بالقلم ، وقد شجعه الاستقلال اللبناى واستهلال العهد الجديد ببشائر الديمقراطية التى لبست سيرته ورسالته ، وأخذت الجماهير تتطلع اليه كرمز لتحررها ومنارة لطريقها ، ليكون ممثلها فى مجلس النواب ووعدته بتأييد اختياره وإيثاره ، لكن عمر تحرير فى أمره ، فانه يعرف أن المال هو الوسيلة الى النيابة ولا مال عنده ، ولأن أصوات الناخبين كما قيل له تباع وتشترى فتحدث متهمكاً

(١) الحقيقة اللبنانية لعمر فاخورى ص ٣٢ .

(٢) « الحقيقة اللبنانية » لعمر فاخورى .

فى برنامج انتخابه عن قضية البيع والشراء وقد عرفها لما مارس
لتجارة فى دكان أبيه ، « لو كانت أصوات المغنين والمغنيات لكان
بتصور أنها تشتري كى تعبأ فى الصندوق ٠٠ لا صندوق الاقتراع ،
بل الفونوغراف » .

« ان أقلية الناخبين التى تباع أصواتها هم من الفقراء مادة
ومعنى ، اما الأكثرية وهم الأطياب والأخيار والأفاضل والواعظون ،
فلا يدخلون فى الانتخاب ويبدو انهم يعتزلون بل يهربون من
المعركة ، انهم يحفظون أصواتهم كأن هذا الحفظ ضرب من الاحتكار ،
فأى الفريقين أشد اساءة للحقيقة ؟

وكان عمر فاخورى عدو الاحتكار فى كل أمر وقد تناوله بقلمه
الناقد وكان حديثا دائما فى أيام الحرب ، فعالجه بدقة ورجع الى
مقدمة ابن خلدون فى سبقه علماء عصرنا الى هذا الموضوع الخطير ،
ولما أقدم على ترشيح نفسه للنيابة مستقلا قدم بيانا لجمهرة الناخبين
فى بيروت عام ١٩٤٣ قال فيه : ان منهاجه هو المنهج الذى لم يتبدل
منذ عشرات السنين لسبب واحد هو انه لم ينفذ »

وقد تتشابه المناهج ، لكن الأشخاص يختلفون لا بأشكال
أنوفهم ، بل بما يبعثون فى النفوس من ثقة « وأخذ عمر فاخورى
يتحدث فى صدد الأصوات التى تباع وتشترى عن « الرجل الذى باع
ظله » (١) وقد قرأ قصة بهذا العنوان فتساءل من هو التاجر السعيد
الذى يشتري ظلال البشر ؟ لو علمتم ان الذى اشترى من بطل
القصة ظله لبطل عجبكم ، هو الشيطان لما رب فى نفسه ، ان ابليس
وحده يعرف كيف يتاجر بالظلال ٠٠ وبالأصوات » .

ولم يبق من أشباه الأصدقاء والمتسائلين من لم يعجب لاقتحام
عمر طريق النيابة دون مال ، لكنه لم يدركه اليأس من النجاح ، فان

(١) للكاتب المصرى فتحى غانم قصة بعنوان « الرجل الذى فقد ظله » وقد

نشرها منذ بضع سنوات .

الجماهير وعدته بأصواتها مجانا ، وكانت ثقتها ومحبتها هي الثمن ،
وقد ظن أن بيروت ولو كانت بلد « الصفقات التجارية » ، لن
الانتخاب هذه المرة لن يكون سوى صفقة شعبية وطنية « نظيفة »
فان بيروت التي ترسل أشعة ثقافة والوعى السياسى ، فتضى
ما حولها لن تبقى فى الظلمة بعد اليوم ، ان عليها واجبا بأن لاتنسى
انها عاصمة شعب حر فى وطن مستقل .

ولو امتدت حياة عمر فاخورى الى أيامنا لوجد امتدادا لما كان
عليه باعة الأصوات فى معركة الانتخاب لمجلس النواب وانقباض
المثقفين والأدباء عن الخوض فيها حافظين أصواتهم فى صدورهم كأنها
ضرب من الاحتكار ولا يقتحم المعمة من المرجوين الا من تمرس
طويلا بالحياة والمجتمع ، وضمن الفوز بالوسائل المصطنعة .

لقد أقدم عمر منذ ربع قرن على هذه المغامرة الشريفة بعد
حساب طويل خيل اليه فيه انه سديد مضمون وكانت السيرة
المثالية والرصيد الفكرى والاجتماعى رائده فى هذه المغامرة ، لكن
عمر المناضل المستقل كان أشبه بصاحب مركب تتلاطم الأمواج حوله
ولما وجهه البحرى البارغ الى هدفه ، وجد أمامه صخرا عتيا فتحطم
المركب ونجا النوتى بأعجوبة

كذلك كانت المعركة الانتخابية ولا تزال فى لبنان وبعض
البلاد العربية أقوى من تيارات البحر وكم تتحطم على الصخور
مراكب فيها ، والنيابة فى الشرق والغرب ذات مزلق ، يعصف بها
الاستغلال والتضليل وتجري تحتها ينابيع المال سرا وعلانية ، وبيع
الأصوات فى سوق النيابة أمر قديم ومعروف فما بال عمر فاخورى
سقى الله مرقداه ما يسره من الغمام والرحمة ، يستهزئ بمزالق
الدرب الوعر الذى حفيت فيه أقدام ودميت ، ولبست فيه أقدام
غيرها نعالا من الذهب ؟

ما أحسب عمر كان جاهلا بالمصير لكنه كمناضل سياسى وأديب

مالي أحب أن يقتحم هذا الغمار لعله يفوز بالنيابة الصادقة ويجدها
سيلة للممارسة الوطنية العمرية في خدمة الشعب .
والشعب نفسه ، وسامحه الله ، في القديم والحديث ، تتجاذبه
تيارات والأعاصير ، فيترامى على الفائدة الجائمة المستعجلة ثم
يلبث بعد حين أن يدرك الخطأ فيعكف على نفسه باللوم والندم .
ولئن خاب عمر في أخذ النيابة ، انه في نظر الحقيقة والتاريخ
ان يعيش فيها خارج دارها ، في قلوب الجماهير وفي صميم الوطن
في رسالة الأديب ، وما كانت الحيلة له في مسعاه وانما كانت
لنيابة نفسها التي تنقاد غالبا للباذلين والمسنودين والمتكتلين .
ولئن استعان عمر فاخوري بصحبه من العاملين والكادحين في
يروت ومنهم جمهرة اليساريين المخلصين ، انه ما من بأس عليه
لا لوم بهذه المعونة القائمة على الصداقة والثقة ، فلا يسبح المرء
لا في الماء لكنه قد يفرق اذا لم يحسن العوم
على أن رداء اليسارية قد لبسته كثير ممن لا يفرقون بين اليمين
والشمال ، وسرح على أشتات المناكب والظهور لكن تتباين تحتها
لشخصيات وتتفاوت المرامي والأهداف ، وما كان رداء عمر مستعارا
ولا زائفا ، فهو من صنع لبنان وابداع الفكر والبيان ، وقد لبسه
عمر مدعوا لغد كبير ، مرجوا لشعبه ووطنه ، لا منتميا أو مداجيا ،
ولا بدع اذا أعجبه من الاشتراكية واليسارية ما رآه لا يند عن طبعه
وأدبه وتعاليم المفكرين والمصلحين والمثل العليا التي تشد القدوة
اليها الآمال والأعمال ولكم لبس الرداء المستعمار من لم يكن على
قده وسعى اليه أناس يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، عظامهم
من ذهب وأرضهم من اقطاع وبيوتهم في قصور ، بل رأينا جامعين
ومفكرين يصطنعون القناع اليساري ويشدون بشكله الزيارة المجانية
للمدينة الفاضلة ، فاذا حققوا التجوال تلفتوا على مختلف الأبعاد
والآفاق يلتمسون جديدا مفيدا

وغير بعيد عن تاريخنا وكفاحنا من نبت عظمه من انذهب
وتورم من الترف ولم يتخرج من عناق اليسار واستغلال أصواته
للوصول الى الحكم والبرلمان ، فليس من حرج على عمر فاخوري أديب
الحرية والجماهير والابداع ، اذا تلفت صوب اليساريين الذين أحبوه
مخلصين ولم يورطوه في الحزبية والمذهبية ، بل وعدوه بنصرته في
المعركة الانتخابية ، لكن التجربة والمغامرة باءتا بالفشل .

ولعل عمر فاخوري بعد هذه الحيبة قد وافاه العزاء بالوعد في
منصب السفير اللبناني بموسكو اذ أعد لهذا المنصب عدته ومظاهره ،
وفيما كان يهيئ متاعه ويعلل نفسه بلقاء « المدينة الفاضلة » بوغت
بالمطل والسكوت ، فكان حرمانه الظالم أشد من الحيبة ، على أن
حياة الرجال الأفذاذ مكتوب عليها النكبات والفجائع ، فمات عمر
- كما قال أحد أصدقائه - وفي نفسه شيء من موسكو ، ولو أنسى
في أجله لفتحت له المدينة الكبرى صدرها وتلقت في جوانحها أديبا
صادقا في سفارته الفكرية والدبلوماسية ...

من أبحاث قاتية / عدم الرد

صداقة الجماهير

عرف عمر فاخورى الصداقة والصديق على غير ما عرفهما أبو حيان التوحيدي فى كتابه ، وكان وفيا لهما معتزا بالصداق فيهما ، كارها من يمتهن الصداقة ويصطنعها للمآرب والنفوذ ، وقد وجدها فى المرأة أبقي من الحب ، وتاقت نفس عمر الى مواجدها فى الجماهير التى كانت صورها تملأ خاطره وسطوره منذ نشأ حتى اكتهل ، فلما اندمج فى أحداث المجتمع والوطن وخطوبهما اشتد تعلقه بالجماهير التى بادلته حبا بحب ، فكانت صداقة عمر صدى لأعماقه التى انعكست فى أدبه وكفاحه ، وما قيمة الحياة بغير جماهير أو وطن ؟ انها هى التى تملؤها وتشغل وجودها ، وحوادثها ، فكان عمر فاخورى يجد نفسه مندفعاً نحو المجتمع بحافز لا يقاوم ، ولم يكن ذلك منه استغلالاً أو تطرفاً وشذوذاً ، بل كان اندفاعه محض ود وإخلاص ، فأثر صداقة الجماهير على كل صداقة ولو كانت للفن والأدب ، ولو فسرنا تحوله عن الأدب فى ظروف وطنية وقومية لرأينا الصداقة الصادقة هى التى كانت من أسباب انصرافه الى السياسة ومتاعبها .

وقد حدثنا فى مقالاته أن « صوت الشعب » كان يستهويه بما حمل فى ذلك الحين (١) ومن نغم جديد فى التغنى بالديمقراطية والحرية وكان العالم العربى الذى خرج من ظلمة بعد ظلمة لم يسمع فيها غير التعلل بالمستقبل كثير الاصغاء للأصوات الجديدة التى شاعت فيها المعانى الأخلاقية والانسانية والقيم الفكرية ، وكان عمر

(١) فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

فاخورى محققا لهذه المعانى فى مكافحة الظلم والظلام مع اخوانه
شهداء الحرية والسيادة العربية ، فكان شغور هذا جوابا على كل
من يهتف لدعوة التحرر من العدوان الاستعمارى ، ولو كان فى أقصى
الأرض ، فلما تنادت الندوات الفكرية فى لبنان والبلاد العربية
لنصرة الذين دحروا الطغيان النازى فى الحرب العالمية الثانية ، كان
عمر مع صحبه جماعة المكافحة لهذا الطغيان يتتبعون أخبار الاتحاد
السوفياتى الذى رد الجيش الألمانى فى اجتياحه أوروبا من أقصاها
الى أقصاها باسطا طاغوته ، مأخوذا بنشوة الغرور حتى كان به
مسا .

وما كادت أخبار عمر فاخورى فى الصداقة الجديدة تتناقلها
الألسنة ، حتى أخذ القول عليه يدور بأشتات التفسير ولو أن
أصحابها عرفوا عمر فاخورى على حقيقته فيما صدر عن ثقافة ومحنة
ودراسة لما عجبوا أن يكون منه هذا الاتجاه المفاجئ ، فقد حسبوا
أنه أصبح بين يوم وليلة يساريا متحيزا الى وجهة دولية خاصة ،
وهو ما كتب دراسة فى هذا الموضوع أو وجه دعوة حزبية أو رسالة
ماركسية ، وانما كانت الآراء الاشتراكية التى أعجبت من صنع
المفكرين والمصلحين فى الشرق والغرب وقد دعت حاجة الجماهير اليها
فى طغيان الترف والباطل والاستعمار فوجد ما جد فيها من تطور
لا يخالف تفكيره القديم والحديث ، وبخاصة بعد أن سئم الناس
سياسة المحتلين ومذاهبهم فى الحكم والثقافة والادارة ، ولم يكن عمر
فاخورى معصوب العينين حين أحب هذه الصداقة للشعوب الحرة
وكانه سبق العصر فى اتجاه الذين تبعوه متأخرين .

ولو أنصفت الأقلام فى سيرة عمر لميزت بينه وبين الانتهازين
للتلك الصداقة ، اذ داروا فيها ذات اليمين وذات الشمال وجعلوها
وسيلة للتحول والتحدى ، ولو حققنا فى نفس عمر فاخورى وتوصلنا
الى تركيبها الروحى لوجدنا نزعاة الاشتراكية قد نبعت من صميم

نفسه ، حتى ولو لم تكن هناك أية جهة لمنابع هذا المذهب لقرره هو على طريقته فى الابداع والتعبير ، وهذا سر اخلاصه لاتجاهه الأخير فى الأدب والحياة وصداقة الجماهير من أجلهما .

ولم يكن عمر فاخورى فى صداقته للجماهير وعلاقته بقضاياها خالطا بين مقادير الوعى فى مفاهيمها وفئاتها وهو من أدرى الناس بما بينها من تفاوت صنعته الطبيعة والحياة أو اخترعته مظالم الانسان للانسان لتقييم السدود والقيود بين جمهور وجمهور ، وفى مقال لعمر عنها ، « لا مناص للأديب شاعرا أو ناثرا من أن يعرف حاجة الجمهور وطلبه ، فان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة أبى زيد الهلالي وأمثالها وبين الذين تسمو نفوسهم الى « لزوميات المعرى » ، وأشباهها البعيدة ، جد بعيدة ، والأدب فى كل أمة وفى كل عصر يظل بين أهل اليمين وأهل الشمال متجاذبا ، كل يشد الى ناحيته ويعمل على شاكلته » .

فهل فرق عمر فى صداقته للجماهير فيما قدم لها من فيض عقله وقلمه واخلاصه كما فرق بين مفاهيمها وادراكها وهو الذى اندفع من أجلها على علاتها اذ لم تكن لها يد فيها ، فتحول من الأدب الفنى الصرف بطرف عصيب للكفاح السياسى بأدب حى صادق لا غلو فيه ولا شطط ، كاشفا بلباقة مقرونة بالنكتة عن مواجع الواقع الذى يعانى الويل والقلق والحرمان وعن المغالطة والهددة فى هذا الواقع الذى تتجاذبه تيارات تموه حقيقته حتى تضيع ، فكان عمر فاخورى فى عصره من أشجع الأدباء فى نقده وموقفه وما أقل الأدباء الذين كانت لهم مواقف وتجارب تلقاء السيطرة الغاشمة والحقيقة الجاثمة ايثارا للسلامة والعافية ، وكان عمر لا يزال يعيش بيننا بأفكاره التحررية التى تسربت الى الجماهير فهزتها وأيقظتها وما كان عمر فى كفاحه الأدبى يلتمس غاية لا تدرك ، فالجماهير من حقها أن تتفهم وتتعلم ، وأن تفكر بمصيرها وتقيم الدليل على

جدارتها بما تطمح اليه ، ومن طباعها وأذواقها ما يسمو الى ثقافة عالمية وأدب رفيع ، فكان صديقا مؤمنا بها وبامكان دفعها بالكلمة والايمان بحقها ونفسها نحو الحياة اللائقة بالانسانية والوطنية ، « وليس حسبنا أن نعيش كما نعيش ، ينبغي أن نفكر كيف يصح أن نعيش » (١) .

وقد يكون عمر فاخورى فى صداقته للجماهير واعتناقه طوابع الديمقراطية والقيم الفكرية شبيها بالأديب المصرى محمد مندور، الذى تحول مثل عمر فاخورى من الأدب فى مقالاته ومؤلفاته الى السياسة والواقع الاجتماعى فى ظلالها ورواسبها ، فتلاقى الأديبان الرائدان المصرى واللبنانى على البعاد ، واختلاف البيئة والتعبير والمزاج ، فى الوجهة والرسالة من أجل الانسان العربى الحديث الذى وضعته وسائل الاستعمار والاستغلال فى مهب الرياح ، فانطلق كل منهما بعدة ضخمة من الموهبة والثقافة والدراسة ليهجر ذاته وراحته ، مندمجا بالجماهير صديقا أديبا يستمد موضوعاته من حياتها ومن الواقع الذى يعيش فيه وتعيش هى فى تطلعاتها وحيرتها وحقائقها ؛ وقد اتفق لمندور ما اتفق لعمر فى الدراسة التى تلقاها على أقطاب الحرية والقانون والفكر فى باريس حيث تفتحت مواهبه ، فلما عاد منها وتمرس بالمحاماة زمنا جفاها ونأى عنها ، وأخذ يتصل بالجماهير ويعمق احساسه بحياتها ، عاكسا فى أدبه ونقده صورا من هذه الحياة منطلقا من خلال التجارب الواقعية الى صداقة من يصدق فى كفاحه للحرية والسيادة القومية ، وكانت لمندور مثلما كان لعمر من الآراء الاشتراكية ما جعله يتطلع الى الصداقة السوفياتية التى دمرت بطولتها طغيان النازية والفاشستية ، فتلاقى الأديبان الجريئان - المصرى واللبنانى - على بعد الديار وتقارب الأفكار ، فى كفاح أدبى دائب من أجل الجماهير وتعبئة وعيها بالثقافة والفن والمحبة .

(١) عمر فاخورى فى كتابه «الاهوادة» .

وقد لقي الاثنان خيبة في الانتخاب للنياية وبلادهما توطن
استقلالها في بناء حياة جديدة فعادا الى الأدب الذي جعله رسالة
الحياة ، ولم ينس عمر فاخوري الذي هجر ذاته وراحته من أجل
الجماهير أن يرتد الى هذه الرسالة بعد أن هزل جسمه وتضخم كفاحه
فكان يتعلق بالكتاب والقلم ويتشبث بالحياة ليحق الابداع الذي
توخاه في أدبه (١) ، ولمسه الناس في نتاجه .

على أن المعاني الانسانية والأهداف التحررية التي أعجبت عمر
فاخوري وصحبه ومحمد مندور وغيره من أحرار الفكر ابان الممارك
الكبرى لخلاص العالم من شر النازية وعتوها لم تكن جديدة
ولا وافدة ، فقد تفتح وعيهم عليها منذ نشئوا وحملوا في كفاحهم
رسالتها مقتدين بمن سبقهم ممن كافحوا استعمارا بعد استعمار ،
واستهزؤا بمكايده ونفوذه ، مؤمنين بمستقبل العرب في الحرية
والسيادة القومية ، لكن الوطن الذي ابتلى باحتلال الانكليز أو
الفرنسيين كابد التخلف والهوان وهما من وسائل الاحتلال الذي
استغل الطائفية والمذهبية ، فلما استبشر الشرق العربي خيرا
بما صنع الاتحاد السوفياتي لنصرة الحرية والديمقراطية وبناء
الانسانية على المعرفة والعدالة والتعاون الصادق في الحقوق
والتكاليف ، هلل المفكرون العرب والمثقفون لعهد جديد تتحرر فيه
البلاد العربية من الاحتلال والاستغلال وتأخذ بتوثيق الاخاء والروابط
التاريخية والفكرية بين جميع المواطنين بارادة شعبية واحدة وسيادة
قومية تحقق الحرية التي حمل العرب لواءها في القديم والحديث ،
وقد عرفوا صداقة جديدة غير صداقة المحتلين الغاصبين « صداقة
الوطن المستقل لوطن مستقل والشعب الحر لشعب حر » (٢) .

(١) من آخر آثاره الفنية فصلان من رواية (حنا الميت) .

(٢) عمر فاخوري في « الحقيقة اللبنانية » .

وكلمة الشعب وحقيقته غدت الشغل الشاغل لعمر فاخوري بعد اعتزاه الحوض في معترك السياسة ومشاركة صحبه في مكافحة النازية وصداقة الاتحاد السوفياتي ، اذ كانت قضايا الوطن والمجتمع في عهد الاستقلال تملأ تفكيره وشعوره وانساق في همة المكافحين من أجل الكادحين الذين يعيشون على هامش الحياة ، وفي صدرها وذراها يعيش أميون في الفكر والسياسة ، فجند نفسه وقلمه للنقد والتبصير ، وأخذ يعبر في مقالاته عن الفكرة الديمقراطية بعد أن طال بحثه عن ملامح الجمال والفن بين السطور والقوافي ، متنقلا في أدبه وكتبه بين بيت من الشعر أو أهزوجة شعبية هزت حسه بأوتارها الصادقة ، ، فاذا هو عاكف على نفسه وقلمه وأسلوبه لاتخاذ موقف صراح من الحلاف العالمي في الحرب ، فحدثنا في مقال طريف عن الجريدة الصغيرة التي كانت تدخل بيته صيف العام ١٩٤٠ على استحياء وتواضع وقد خلت من اسم المسئول عنها ، وعنوان المطبعة التي تخرجها .

لقد أحب عمر هذه الصحيفة التي دخلت بيته متواضعة في زيتها كحسنة فقيرة محتشمة ، لكن تحترم ذاتها .

وما كان أعجل عمر في ذلك العهد الى قراءة الصحيفة الحرام التي كانت تتسلل الى منزله من كوة الباب كأنها من الأشياء الخطرة أو المهربة ، فيلقاها عمر فاخوري بشوق وابتسامة ، ويعكف عليها كأنها رسالة خاصة تأتيه على حياء وخفاء فيقرأ محتواها والهواجس تختلط في نفسه وذهنه اذ يجد فيها معاني بعيدة «وزاوية مستقيمة» ، فيتعلق بما حملت من الأفكار التي كانت تدور في خاطره وبيانه حتى عدها « آخر مدرسة تعلم فيها سداد الفكر وصدق العمل » فقال : ان هذه الصحيفة المتواضعة ليست بحاجة الى تضخيم صوتها اذ لا صوت يعلوه فهو صوت الشعب . . أو الجماهير التي يتألف

منها ، وكان في هذه الصحيفة الصغيرة قارورة مارو ، فما كاد عمر
فاخوري يفتح السدّام عنها مرة بعد مرة حتى انطلق منها ذلك المارد
وملاً بيت عمر بسحره ، ولم تكن هذه الحادثة العابرة غريبة عن
عمر ، اذ كانت تستهويه الأساطير ويدعو لاصطناعها في الفن
القصصي ، ولما تكلم أول وهلة في الاذاعة اللبنانية خيل اليه أن
صوته قد انفصل عنه وانطلق مثل مارد بين السماء والأرض ، وكذلك
كان « صوت الشعب » في تلك الصحيفة المتواضعة يملأ خواطره
وكانها حسناء خالصة تسللت اليه من الغيب لتشغله عن نفسه وهمه
بمقائنها ، وما كانت هذه المقائن في وجدانه ورأيه الا حقائق الجماهير
التي كانت تناديه بأن ينطلق من أجلها وكان يكتب لها على اختلاف
بيئاتها وفئاتها ، وما أكثر ما خاطب الشباب العربي الصاعد : « بأن
يرفعوا الجمهور بحيث لا تبعد الشقة بينه وبين السواد منه » قائلا
في كثير من السوانح : « لقد بعد عهدنا بالفكر الوثاب حتى أمسينا
كالة قديمة الطراز صدئة الجهاز » .

وكان عمر فاخوري من أبرز القلة المعدودين في الفكر العربي
الحديث ، ولقد مثل وثباته في التطور وحقق طموحه في ابداع الأدب
ومحاورة الجماهير .

الفصل الرابع

كاتب المقال

فى مطالع هذا العصر أخذ المقال العربى خطابيا وأديبا يتطور فى أدائه وموضوعه اذ كان يكتب على طريقة المقامات الحريرية والهمدانية مشحونا بالصناعة اللفظية والمعانى السطحية ، فلما خلع النثر عن منكبىه هذا التكلف والزخرف وتحرر مما عوق تحريره وانطلاقه تعددت فيه فنون القول ، فاتجه اليها الكتاب بحسب منازعهم واختصاصهم فوسعت الموضوعات والخطط والشخصيات ، فمن المقالات ما كان يكتب لتصوير الحياة الاجتماعية والتعبير عما يلابسها ويحيط بها من خير أو شر دون تقييد بنسق محدد أو موضوع معين ، ولا يختلف بعضها عن بعض آخر الا باختلاف الفكر والاتجاه .

وأفضل المقالات فى أدبنا الحديث ما حمل من المعانى والصور أكثر مما حمل من الألفاظ والخطوط ، ولعل المقالة الأدبية الممتازة هى التى تتميز بأسلوب كاتبها وتعبر عن شخصيته وفكرته ، خالية من عيوب الأداء فى اللغة ، محتفظة بقيمتها الفنية وانطباعات صاحبها وتجاربه الوجدانية والنفسية .

ولم يكن بطيئا أو عسيرا تطور المقال فى قلبه ومحتواه وهو الذى بدأت فى بيانه وتوجيهه نهضتنا الفكرية والقومية ، فقد تأبى الوعى والذوق على قديمه وأخذ يتحرر من معوقاته فى الانطلاق وتأثر الى أبعد الحدود بنماذج الثقافة والفن بين الشرق والغرب ودراسة

اللغات والآداب العالمية وكان لانتشار الصحافة العربية التي قامت على المقال فضل في تجديد التعبير وتنويعه . وقد فتحت هذه الصحافة صدرها لمقالات الكبار من الكتاب والمفكرين ، وكان للمجلات الطليعية في النصف الأول من هذا العصر « كالمقتطف » و « الهلال » و « الرسالة » و « الثقافة » في مصر ، و « العرفان » و « الكشف » و « الأديب » و « المكشوف » في لبنان أثر عميق في تطور المقالة على اختلاف أهدافها وفنونها واختصاص كتابها وقد شاركت المرأة العربية أدبية وصحافية في انشاء المقال وتطوره وبرز أعلام الأدب الحديث في هذا الفن الواسع الذي استطاع أن يحمل الفكرة والصورة معا بعد أن كان متأرجحا بين تعبير لفظي أنيق تتجلبل فيه العبارات الموسيقية الرنانة ، لكنه خلو من نقطة يدور حولها الاداء وبين مقال عن انعكاسات الوجود في ذات الكاتب لكنه هزيل التركيب ، ولكم طال الجدل والحوار حول مسألة القيم والأساليب في المقالات الأدبية حتى رأيناها جامعة بين أطراف الموضوع حابكة نسيجه بما يستهوى القارئ ولو كان جديا أو نقديا . وقد تمثلت القوالب ومحتوياتها بما قدم رواد التطور الفكري والتعبيري في مقالاتهم وكتبهم وكان أبعدهم صيتا وتأثيرا طه حسين والعقاد والمازني والرافعي وأحمد أمين وزكي نجيب محمود وغيرهم كثير ، ومن نوابغ اللبنانيين المبكرين في تطور الاداء جبران والريحاني والنعيمة ومي زيادة ، ثم اتسع التطور في أدب لبنان لاتساع الثقافة الغربية فيه واتصاله بمذاهب الفكر المستحدثة ، وكان هذا شأن الذين لمعت أسماءهم ما بين الحربين العالميتين ، وفي طليعتهم عمر فاخوري أديب بيروت الذي أثر المقال بفنه وأسلوبه ، فهو واحد من أدبائه المعدودين في لبنان والعالم العربي كالأمير مصطفى الشهابي وشفيق جبري وعمر فروخ وكرم ملحهم وكرم خليلي تقى الدين و خليل رامز سركيس وأندادهم ممن أوتوا خصائص المقالة وثقافة الفكر والحياة ، وكان لكل منهم أسلوب عرف به وأسبغ مسحة من ذاته وسجاياه .

وكانت مياسم الفن في مقال عمر فاخوري تجمع بين الإيجاز والامتلاء ، ولكم عرفنا أدباء معاصرين أطلوا المقال واستطردوا فيه حتى خرجوا عن أهدافه وأضاعوا القارئ في الحشو والتكرار وفي الترادف والتنميق ، لكن الذين تفوقوا في المقال وفاقا لحاجة العصر وذوقه وثقافته هم الذين احتلوا الصدارة في المجلات والصحف ، وكانت تقوم على المقال في الأدب والسياسة والاجتماع .

فاذا كان علماء التعبير قد عرفوا المقال بأنه كتاب صغير ، فان عمر فاخوري الأديب البيروتي الثقة قد ألف كثيرا من هذه الكتب على قلة إنتاجه ، والقارئ لمقالاته يشعر أنه في صميم الموضوع . وأن الكاتب الأصيل يأخذه ويأتي به مثل من ركب زورقا في بحر هادئ حتى يوصله الى الشاطئ الذي يريد . ويحس القارئ في مقالات عمر شيئا غير التسلية وترجية الوقت فينتهي منها الى مكتسب فكري وذوق في موضوعاته الطريفة وتعبيره البليغ الذي سلم من الركاكة والعجمة ، ودخل محتواه النفس والشعور .

ومن عناصر مقالاته الجدة والابتكار على ترادف الموضوعات والأيام ، وكما يجد القارئ فيها تمازجا فنيا وفكريا منضوحا من أدب الغرب وثقافته بالمقارنة والموازنة والاقتباس ، ومقالات عمر على قلتها تقنع الباحث والدارس باحتوائها صور عصرها وتمثيلها أدب صاحبها والمجتمع الذي عاش فيه .

على أن الذي زاد في رجحان هذه المقالات وقيمتها الفنية أسلوب عمر الذي انفرد به وشف عن شخصيته ومراميه وكان طابعه السخرية والتوثب ، وإن له لعبارات بين حاصرتين يكاد القارئ والسامع أن يجد فيها جلجلة غير مؤذية وروعة لم يشاركه فيها أديب ، وإذا كان بعض النقاد والكتاب يعودون الى مقارنة عمر بصاحبه الجاحظ ، فما أبعد ما ذهبوا اليه في طريقة السخرية والمقال ، فالجاحظ مكرر

للجملة ، موثق للمعنى المعاد ، لكن روحه المرححة تشبه روح عمر مع الفارق فى الشكل والاتجاه .

ولعل وجه المشابهة بين عمر والجاحظ جاء من أن الممارس بالتمحيص والتتبع لمقالات عمر فاخورى يجد فى تعبيرها وموضوعاتها من القصص والشعر والتصوير والنقد الأدبى والدراسة التحليلية ما لو تفرد صاحبها بكل فن من فنونها لأوفى على الغاية ، لكنه جمعها كلها فى طاقة واحدة فجاءت أضخمة زهر متنوعة الشكل والتعبير .

لقد كان عمر فاخورى متميزا بارزا فى أدب عصره بالمقال الوجيز الملىء وبضم مقالاته فى كتب مطبوعة بعد نشرها فى الصحف والمجلات اذ كان يجمع كل طائفة ذات نسق واحد وموضوع يكاد يكون واحدا فى كتاب ، وهذا ما كفل لأدب عمر فاخورى البقاء والتداول ، وسيبقى مقال عمر فاخورى على تطور النشر وتعدد ألوانه مثالا يحتذى فى التعبير الأدبى الحديث ، على حين أهملت مقالات كثير من أدبائنا المعاصرين لأنها متشابهة وقد عاشت لتؤدى فى صمتها فكرة عابرة لا يربطها بالحياة الا ظهورها فى الصحف والمجلات ، ولو حاسب قراءها أصحابها على حرصهم فى نشرها وطبعها لوجدوا أنفسهم قد تبعوا أصواتا فارغة لها لا تحمل نغما أو رنيناً ، ولا يمكن أن تعود فى الوجود .

ولولا الروح الخالدة والاتقان فى الأداء فى مقالات الجاحظ والتوحيدى وأمثالهما لما بلغت عصرنا وكأنها اليوم تكتب ولنا .

تقال ..

وكذلك أدب المقال عند أنداد عمر فى عصرنا ستترامى أصواتها على العصور القادمة وكأنها تعيش فيها لما احتوت من قيمة فنية وصدق فى التصوير والتعبير وما تريده الانسانية فى كل جيل ، وما كان لمقال عمر أن يبقى مستحبا على تطور الذوق والمقاييس لولا أسلوبه الذى ميزه من أمثاله الكتاب .

النقاد

لقد أوتى عمر فاخورى فى أدبه طبيعة النقد وثقافته ، وكانت نظراته الممحصة تستجلى بسرعة وشمول أشتات العشرات والهئات فى آثار الفكر والأدب ، ولم يكن جافزه التهكم والتبرم بما كان يقرأ ويسمع للتشفى والتحدى ، كما كان دأب أكثر النقاد فى أيامه ، وإنما كان عمر فى أدبه ونقده يتوخى تحرير الفكر والأداء والاجادة فى الموضوع ومحتواه ، على أن القارئ يحس فى مقالات عمر النقدية سخرية من الثقل الذين تكلفوا الأدب وزخرفوا التعبير وهو أجوف الفكرة وينكره الواقع ولا تنبض فيه الحياة ، فكانت مياسم عمر واسعة وكان بيده رملا يذره بنقده على رؤوس فارغة ومؤلفات من حبر وورق .

ولم يكن نقده فى الأدب منصبا على كل قديم ، مفضلا كل حديث ، بل كان يعطى الحق كل ابتداء أو اتقان فى الشعر والنثر ، ولو كان ممعنا فى القدم ، وما كان همه أن يفضل لفظا على لفظ أو معنى على معنى ، فان نقده الذاتى والموضوعى معا كان يلم بالآثار الأدبية باحثا عن تعبير سليم وتفكير حر فيهما طعم ولون من ذوق العصر وأطواره فكان شأن نقده فيها حفاظا على أصالة اللغة فى طريقة الأداء ، وعمق الصورة ، وفيما أرادت ألوانها وخطوطها متهمكا على أدباء المداد الذين ارتبطت قلوبهم وألسنتهم بما جفت فيه الحياة من لغة رنانة وعبارات منبرية وأفكار من الهباء ليسدوا بأيديهم تطور الفصحى والبيان ، وكأنما أرادوا حجب الشمس بأكفهم عن العيون لكن الأصالة بقيت تضىء فى بلاغة الفن والأداء لأنها مع الزمان وليسوا بأقوى منها ومن طبيعة العصر .

كان عمر متعلقا بحياة العصر وأدبه ، فأراد بنقده أن يكون أدبنا الحديث صادق التعبير عن المجتمع الذى يعيش فيه فحمل بنقده على طواحين الألفاظ والقوالب الجاهزة التى تتجافى عن مطالب القراء ، « وفى الصفعة الأدبية بضاعة للسوق مختلفة النسيج والألوان . خاضعة للعرض والطلب ، وقد سئم القراء الموعظة المكررة ويئسوا من تنفيذ محتوياتها ، وقد تكون البضاعة الرديئة أو المزجاة هى الرائجة ٠٠٠ لكن الجيدة منها يبقى ثمنها فيها ٠ »

ولو أن عمر الفاخورى الناقد وقف من قرائه وآثار زملائه من الأدباء موقف المعلم والواعظ لانقض القراء من حوله وتجهمت له الأقلام والنفوس ، لكنه ما نقد نصا أو بحثا ، أو مر بنقده على قصيدة أو مقال دون أن يتصدى لذاته بالنقد ويود لو استطاع أن ينفخ القراء من مختلف الجماهير بما يرضى عقولهم وأذواقهم ويرفع من شأنهم وشعورهم ، ولقد وقف فى أيامه ومطالعاته على مذاهب الفكر والنقد فى أدب الشرق والغرب فما آثر منها مذهباً محدداً أو اتخذ طابعاً تقليدياً فيما تناول من تمحيص وتحقيق ، بل كان معايينا متتبعا من قريب ومن بعيد وعلى سجيته وطريقته هبات فكرية وخصومات أدبية بين كبار الكتاب والنقاد ، فلم يشهر سلاحه أو يتحيز الى فئة ولو أعجبه تطورها فى الأداء والفكر المعاصر واقتباسها من ثقافة الغرب ما أعانها على هذا التطور ٠

ولم يفته الوقوف على الضجيج أو التهاثر حول القديم والحديث والصراع بين التطرف والمحافظة فى أدبنا المعاصر فكان اذا خلا لنفسه وقلمه ضحك طويلا لما رافق تلك المقالات النقدية والجدلية التى جمعت أضغانا وعدوانا لوجه الشيطان وبقي صداها وميراثها على ترادف السنين حتى أيامه وأيامنا ، وقد طوى الموت أكثر الذين شاركوا فى النقد وخصوماته أو حملوا راياتها ووجهوا حملاتها فتركت منافع ورواسب فى أدبنا وثقافتنا مقرونة بذكريات أليمة ، لأنها لم تخضع

لقواعد الفن والأدب المجرد ، وإنما كان أكثرها ردءاً وستاراً لمتنافسين
فى اللغة والمناصب والشهرة .

وحق لعمر فاخورى أن يسلم قلمه من الحوض فى تلك المعارك
النقدية التى ملأ ضجيجها حيناً من الزمن أرجاء العرب منذ كتاب
« الأدب الجاهلى » لظه حسين عام ١٩٢٦ الى الأربعين من هذا العصر ،
ولم تخل بيروت مدينة الصحافة والثقافة وندوة الجامعات والجمعيات
من تحاور دار فيها عنيفا واتهام مشبوه حول نغمات ناشزة كانت
تسلل الى المسامع والنفوس فى أعقاب المحن السياسية والدعوات
التحريرية لكنها لم تلق الصدى الذى كانت تطمح فيه ، منها النزعات
الفينيقية والعامية والاغراء بالحروف اللاتينية على نقيض ما وقع فى
من المنازع الرجعية كالفرعونية والانفصالية الاقليمية فان بعض
المرموقين فى الأدب والتدريس والوظيفة كانوا يديرون الحوار حولها ،
ليدسوا مآربهم منها نافخين فى نارها حاجبين النور والغرض عن
تلاميذهم وقرائهم ؛ على أن من الحق أن نذكر رجوع أكثر الكبار الى
الصواب فبقيت الحفايا فى بعض الأعماق .

أما فى لبنان فعلى الرغم من الحاج هذه المحاولات وتناولها حيناً
بعد حين ، فان عمر فاخورى وأنداده من النقاد اللبنانيين لم يأبهوا
لها ليجعلوا من خطبها وقوداً ، وما كان لعمر فاخورى التأثير فى نقده
لاستفحال الداء القرطاسى والمغالطات فى حياة الأدب الحديث ليعبأ
بصرخات فى الهواء كانت حناجرها من الرعب والتعصب فبقيت
الحقيقة تلقاءها مستهزئة متهمكة ، وكان عمر يقدر حرية الفكر ،
لكن التحريف باسمها والتزييف للواقع كان يتركهما لوعى الشعب
الذى عاش فيه ، أما اذا تناول أجنبى مسألة عربية من وجهة نظره ،
لا من الوجهة الحقيقية فكان قلم عمر مبادراً الى التنقيب والتعقيب
قيماً يعيد الحق الى نصابه وقد أفرد لنقد المستشرقين كتاباً سماه
« آراء غربية فى مسائل شرقية » بين فيه الخطأ والدسياسة .

ومن عجب أن عمر فاخوري على تعدد النواحي في أدبه لم يستطع أن يحصر نفسه طويلا في نطاق محدد من نقده وتمحيصه ، فهو وراء الحقيقة فيما كان يكتب ويخطب وفيما وجد من سوء تأليف وتركيب ومن وقوع المعنى والفكر في غير موضعه وتجافيه عن روح العصر وذوقه ولعل هذه الناحية التي تفرد بها قد انحصرت في فئة النقاد الهندي لبس أسلوبه الرشيق ، ففي تهكمه ودعابته ، وفي جده وتجرده ، كان أدائه يعج بالصور الحية والألفاظ الدسمة المعبرة فيدرك القارئ الواعي ما يريد عمر وتقع في النفس خواطره وهو ينقد بدلالة مؤثرة وحجج بالغة .

ولم تكن مقالاته النقدية مقصورة على لون واحد في فنون الأدب والحياة ، وانك لتجد مصداق هذا في كتبه ، ففي « الباب المرصود » ضم عمر مقالاته حول الشعر وبعض الشعراء في عصره وهذا الكتاب يكاد يؤلف وحدة موضوعية في مضمونه وفصوله وكان عمر يتملص من أسر الموضوع الواحد ، لكنه اختار فصوله مما نشر في الحقبة السعيدة من عمره ماعدا مقال « المأدبة » وكان الخاتمة ، ولعل عمر الذي أعد كتابه بعد صمت حزين شاء أن يجعل « الباب المرصود » فاتحة عهد جديد له فقال :

« قد لا يكون لهذه الفصول التي أملت بموضوع الشعر من بعض نواحيه قيمة في ذاتها لكن لها على الأقل قيمة تاريخية في حياة صاحبها وحده ، أما قيمتها في حياة الأدب فللقارئ الكريم أن يردّها الى « ما قبل التاريخ » .

وكانت طبيعة هذا الكتاب تصويرية تهكمية يخرج منها القارئ بصورتين لا ثلاثة لهما ، الأولى أنه أخذ مسلة ونخر بها بعض الشعراء والنظامين في زمانه كما ينخر صاحب الحمار حماره ليسرع في المشي أو يعتدل ، والثانية فيها تقدير لبعض الملهمين المجددين الذين اقتبسوا من ثقافة الغرب وحافظوا على الأصالة في

التعبير ، فوضع عمر فاخورى على جباههم أكاليل نسجها من غاربه وهو بهذا الصنيع أمسك بميزان النقد الشعرى على نحو لم يزاحمه فيه ناقد فى وطنه ، وهذا الميزان كانت تمسك بأمثاله فئة قليلة من النقاد المصريين ، وكان مارون عبود شيخ الأدباء فى لبنان يحمل رسالة نقدية فى الأدب والتأليف الحديث ، لكن طبيعته الهزلية واضطراره للمجاملة أفقدا نقده القيمة الموضوعية وتركه يغص بذاتية جارفة .

أما عمر فاخورى الذى جمع بين القيمتين والصورتين فكان مثل صديقه الروحى ومعلمه أناتول فرانس القائل : الناقد حبيس فى قفص نفسه مثل طير « ومعلم عمر أنكر التجرد فى النقد ومن هاهنا كان عمر لا ينجو مثله من التأثر فكان نقده جامعا بين الذاتية والموضوعية ولم يكن منهجيا تقليديا ، بل صادرا عن ثقافة واسعة ، وموهبة فى التمحيص والتمييز خصبة فكان بأدبه يشق عليه أن يمر بمواقع الزيف والتحريف دون أن تظهر بمقالاته الدلالة عليها ، على انه لم يؤلف قصصا وموضوعات رمى فيها الى تصوير الحق والباطل والخير أو الشر فى مضمونها وإنما اصطنع فنه فى عبارات تومىء بخفة وحجة ، وترمى بدقة الى هدفه ، حتى اذا ألقى فى سطره ما يريد وقف من قارئه غير بعيد تاركا له حرية الرأى والذوق والتعليق ، وكأنه كتب قصة فنية لا نقدا موضوعيا فينسب القارئ فى مقال عمر مأخوذا بسحر أسلوبه ورهافة احساسه وانفراده بطريقته فى النقد ، ولعله ألهم تحليل الشعور والأفكار التى تنتفض وتهتاج فى المنقود اذا جبهه قلم صريح بالحقيقة ، ولهذا فان عمر فاخورى الناقد كان يغلف مطرقته بالقطن ، فيضرب ولا يؤذى ويبدأ بنفسه قبل غيره فى دعاية مستحبة ، ولكم وجدنا من النقاد من جردوا سلاحهم بالسنة حداد وهم أولى بردها على أنفسهم وآثارهم ، ولقد مرت بخاطرة سكبها صاحبها على الشاعر والفيلسوف المعاصر « بول

كلوديل ، ليغسل وجوده بنارها ، فكان صداها سيئا عند الأدباء المعتدلين ، وهذا يدل على سوء النقد في أدب الشرق والغرب عند من تحيروا في آرائهم وتحيفوا آثار غيرهم ، فان الضغينة أشفت نفوسهم الصغيرة التي ضاقت بتفوق المهتمين والمطبوعين ، فجعلت الطبيعة قصاصهم في قلوبهم وأقلامهم لم تنفث الا سما ولؤما .

وفي النقد من برزوا أيام عمر بالمداورة فراغوا من القارىء والكاتب لا رفقا واشفاقا ، بل تحيزا وملقا ، وهذا لا يجوز أن يسمى نقدا ، ولو طال عمر عمر لرأى في أيامنا ساحات النقد خالية خاوية الا ممن استغلوا الحلو وصفا لهم فنقروا كما تنقر الطيور ، وضاعت تقدراتهم بين اشتات النظريات والمذاهب الوافدة فلا يروقه منها في التعليق والتطبيق الا ما كان منها ضاربا على أوتارهم أو عابثا بأفكارهم .

ولابد أن يكون عمر فاحورى قد سكب في نقده حمما في نفوس الذين لم يستطيعوا أن يتناولوا عليه من ادعياء النقد ، فاستتروا وراء الاشارة والأدب لينصحوه بأن يتحامى السياسة وهو في اصراره عليها لتبيان الحقيقة في مفاهيمها ومراسها مبرا الغاية في اقدامه وهو الأديب الصادق مع نفسه وغيره بأن رسالة الأديب تقتضيه الارتباط بزمنه ووطنه ، لا بأوراقه ودفاتره فحسب بل بكل ما يضطرب في الحياة والمجتمع ليعكسه في تعبيره صورا واقعية وسطورا ناطقة بالمعاني التي يريدتها : والا فأن هذا المجتمع الذي يعيش فيه ويستمد منه عناصره قد يستغنى عن أدب لا يجد نفسه فيه ولا يعبر عن حياته ، وويل للأديب الذي يعد مسئولا ومرجوا اذا اكتفى بالأخذ دون العطاء وتخلي عن رسالته في النقد والتبصير .

القصصى

يجد الباحث فى أدب عمر فاخورى منذ بدأ التعبير بالقلم عن ذكرياته وهو طالب ناشئ أو أديب كبير ، أن بواكيره وآثاره فى رسائله ومقالاته وفى خطبه وأحاديثه لم تخل من الفن القصصى الذى أوتى عمر موهبته وأصوله وتلقى ثقافته من ينابيع الحياة وتجاربها وقرأ فيه الروائع العالمية ، لكنه تخلص عن هذا الفن وتجافى حيناً ، ولم تكن آثاره فيه خصبة أو متكاملة ، ولو انصرف الى فن القصة لكان مبدعاً بشهادة ما قدم من هذا النتاج بقليل . فهو من هذه الناحية والبداية شبيه بالأديب المصرى توفيق الحكيم الذى انتصر فيه طالب الفن والأدب على طالب الحقوق ، وكاتب القصة والمقال الوجيه على مؤلف الدراسة الأدبية والجامعية وغيرها .

ويبدو أن عمر فاخورى الذى سبق ألداده وأترابه فى زمانه الى فن القصة فى بلاده كانت تستهويه المجلات والمسلسلات العربية التى عنيت فى فاتحة عصرنا بنقل القصص والروايات الأجنبية الى لغتنا ، فحدثته نفسه على احداة بترجمة أقاصيص من الفرنسية كان يحفظها فى دفاتره ولا ينشرها ، وربما استعارها منه أصدقاؤه ليقرءوها فيسعد برضاهم عنها .

وقد بقى عمر على ترادف الأيام واتساع تفكيره بشئون الفن والحياة متتبعا مظاهر الحركة القصصية فى أدب الغرب وبعض البلاد العربية ومنها مصر التى لمع فيها بعض الموهوبين فى القصة والتمثيلية كالتيموريين : محمد ثم محمود وطاهر لاشين وحسن محمود وإبراهيم المصرى ويحيى حقى وغيرهم من أدباء الفن القصصى على ضفاف النيل ، وليس كل قصصى بأديب .

وكان هذا الفن الأصيل يجرى فى لحم عمر ودمه وعلى لسانه وفى بيانه لا تشغله عنه دراسته الجامعية المتقطعة فى بيروت وباريس فيودع دفتره بعض تجاربه القصصية أو خطوطا ورعوس أفكار لقصص يريد أن يكتبها ، فهو وثيق الصلة بالحياة الاجتماعية والشعبية فى بيروت ، يركب « ترام البسطة (١) » مع التلاميذ والعمال ، وقد يبقى فى أوقات فراغه متنقلا بالحافلة الكهربائية حتى يهبط منها ليجلس على الشاطيء أو فى المقهى ، فيملا عينيه وأذنيه وقلبه واحساسه من تلك المشاهد الطبيعية والبشرية ، ثم يرتد الى بيته مغتبطا بما رأى وسمع ، جالسا من فوره الى جدته العجوز ، أو التاريخ الحى ، كما كان يسميها فيحاورها ويسألها عن أخبار بيروت فى القديم والحديث وتستهويه فى حديثها الأساطير والحكايات فى أسمار الشتاء قرب المدفأة ، وينظر عمر الى الحياة اليومية بتكاليفها ومفاتها ، متأملا متسائلا ، كأنه رقيب أفلاطونى بينه وبين نفسه أو بينه وبين صحبه ومن يلقاهم فى الطريق والسوق وقد يطيل الجلوس فى مقهى « الحاج داود » الجاثم على البحر فتعود الى خاطره ذكرى الصياد الذى تعلم عمر على يديه الصبر

وفى مقهاه المفضل كان يطيب لعمر أن يرصد حركات عجوز يلعب « النرد » ويبدو للأنظار كأنه يبكى ، فيهم عمر بسؤاله عما يبكيه ، لكن الشيخ يمضى فى اللعب وهو يضحك من خصمه ويبكى فى الوقت نفسه ، وبكاؤه كضحكه فيقول عمر فاخورى : ان صورة هذا العجوز وهو فى ركن من أركان المقهى أروع من صورة المستحى بلا حياء ، وأعجب من صورة المتعجب من غير عجب ، هو حزين ، جد حزين ، كأنما نعتت اليه نفسه ، ويلعب بالنرد ولا يمسح دموعه بحسبكم أن تتمثلوه شجرة من الصفصاف المتهدل الأغصان الذى يلقيه الفرنسيون بالبكاء ، أو أن تتصوروا سماء تمطر ولا ماء . .

هذه صورة قصصية من صور عديدة تصيدها عمر فاخوري ،
وقيدها في دفاتره بعد أن استمد خطوطها وألوانها من الواقع
والطبيعة على سيف البحر في بيروت قرب « الزيتون » ، وقد سمي
عمر شيخه الضاحك الباكي « كهاكه » وكانت هذه التسمية من كتاب
للزمخشري ، قرأ فيه عمر وصفا للحجاج بأنه كان قصيرا كهاكها .
والقهقهة أو « الكهكهة » تسمية لما يعرف بالضحك الهستيري . . .
ولا نجد في المنتج اللبناني الحديث أدبيا بيروتيا عمق الفكر
والشعور بمدينته مثل عمر فاخوري ، وقديما كتب مقالا رائعا عن
وجهها وتطورها ، تحدث الناس بروعته طويلا ، اذ وجدوا أنفسهم
في سطورهم وموضوعه ، وازدادوا بعده اعجابا بفن عمر في صورته
القصصية التي رأوا فيها بيروت القديمة الجديدة ، المتطورة المتغيرة
في معالمها ومجاليها منذ هبت عليها رياح العصر ، فلم تخل مقالات
عمر من تصوير شائق لناحية فيها ، وما أكثر الجوانب البيروتية في
أدب عمر وآثاره التي ماجت فيها خصائص القصة واندمجت بأسلوبه .
ولقد أعد عمر فاخوري في كراريسه أمثلة وصورا كثيرة كان
يريد أن ينفخ روح الفن القصصي في تدوينها وسطورها ويجعل من
شخصياتها وحوادثها أبطالاً يتنقلون بين الناس بأسمائهم وطبائعهم
فيتحدثون عنهم خيرا أو شرا ويحملون وهم على الورق انعكاسا لما
عرف عمر من حياة الناس في رحلاته اليومية أو الأسبوعية من بيته
الى عمله أو تجواله « ثم يعود الى بيته - والعود أحمد - مهنئا نفسه
بسلامة الوصول كالأيب من سفر بعيد » (١) و « هو اذ يعود لا يكتفى
بأن يرحل في المكان ، بل هو يريد أن يرحل في الزمان فيجلس الى
جدته يسألها ويحاورها . . .

ويبدو أن عمر فاخوري كان يعتزم نشر قصصه ثم يتردد ويحجم

(١) لاهوادة لعمر فاخوري ص ٨٨ .

لأنه يجدها دون ما ينبغي لها من تقويم واجادة وكان يعز عليه أن يخرج قلمه لونا في الأدب جرى في لحمه ودمه ، وشاع في آثاره وبواكيره ، لكن عقله كان يتأبى على نفسه فلا يدغدغ رضاها بما لا يرضيه ، وكان الفن القصصى في لبنان آخذا بالانتشار موضوعا أو مترجما ، وقد سبق الى هذا الفن رائد كبير هو ميخائيل نعيمة ثم نابغة خصب القلم هو الأديب كرم ملحم كرم الذي كتب القصة والرواية مستقلة ومسلسلة وعبر فيها عن الروح اللبنانية في القرية والمدينة وصور الحياة فيهما بكل ما فيها من تناقض وملابسات وأنشأ من أجلها مجلة « ألف ليلة وليلة » قبل الثلاثين من هذا العصر ، وبعد هذه السنين لمعت أسماء قصصيين موهوبين كان في طليعتهم خليل تقى الدين وتوفيق يوسف عواد ولطفى حيدر ونجيب العقيقي ورشاد دارغوث وأحمد مكى ورثيف خورى (١) ومارون عبود وغيرهم ممن جاءوا بعدهم ، فجددوا في الفن وأجادوا بناء القصة كسهيل ادريس وجميل جبر ويوسف حبشى الاشقر ونبيل خورى وأمثالهم من الكتاب المطبوعين .

ولم يفت عمر فاخورى تتبع هذه الحركة الجديدة في أدب القصة بلبنان ، وأكثر الذين شاركوا في هذا الفن من الطليعة المبكرة كانوا من صحبه وأصدقائه ، وفي الوقت نفسه كان عمر يقرأ ما جد في القصة العربية والرواية ويدعو المطبوعين من أدباء العرب للعناية بهذا الفن الذى استخف به بعض الأعلام وقد مارسوه ثم انطلقوا منه الى ما كانوا بسبيله في التأليف والتحقيق أو السيرة والمذكرات .

ولئن انصرف عمر في هذه المدة من حياته وأدبه الى المقال الذى

(١) من أقرب الاصدقاء لعمر فاخورى وقد تخطفه الموت بمثل عمره هذا العام ، وكان وفيما لذكره فما أشد خسارة الأدب بفقد هذا الأديب قلما وسلوكا ونتاجا ..

جمع بين الفن والأسلوب ان مقالاته قد احتوت إصور القصصية والتجارب النفسية حتى الموضوعات الجدية التي تناولت قضايا الحرية والحياة المتجددة لم تخل من سياق القصة الفنية ، فيها النكتة العمرية وهذا ما كان يحجب الأذهان والنفوس فيها ويقرب معانيها الى الوعي والمفاهيم السليمة .

وما أروع المقالات التي تناول فيها فن القصص ، لايمانه بأنه يسد حاجة انسانية عامة لها شأن في الحياة الأدبية على اختلاف العصور والاجيال . . وعاب على أدبنا الحديث اهتمامه بنقل القصص الاجنبية التي لا قيمة لها غير الثمن الذي تشتري به ، وهذا الصنف من الأدب التجارى راج فى ديار الغرب ، وليس عندنا منه الا القليل ولو عاش عمر فاخورى فى أيامنا لشهد أسوأ ما راج فى الغرب عندنا مترجما مشوها .

أما الروائع العالمية فى القصة والرواية والمسرحية فلا تنقل الى لغتنا بمثل السهولة التي تنقل بها تلك السخافات ، وقد عانى فى ترجمة بعضها الى العربية أو تلخيصه نفر من أعلام المفكرين والأدباء كطه حسين والزيات ومحمد عوض ومحمد وغيرهم فى مصر وبعض البلاد العربية ، وقد نهض عمر فاخورى بجزء من هذه الترجمة الدقيقة الصعبة فنقل تمثيلية لبير ديكورسيل عنوانها «ابن الآخر» و «كرانكيبيل» لأناتول فرانس غير نقله للعربية حياة غاندى لرومن روللان ، و «آراء أناتول فرانس» و «آراء غربية فى مسائل شرقية» ، وسواها من منقولاته الصحيحة عن الفرنسية والانكليزية ونشر بعضها فى كتب ولا يزال بعض منها فى مطاوى الصحف والمجلات . على أن فن القصة أخذ دوره فى أدب عمر قارئاً وكاتباً وداعياً لضرورة الاهتمام بالحركة القصصية التي دبّت فى الصحف والمجلات فاستبشر خيراً بمحاولات المهوبين من بلاده على أن يستمدوا لفنهم صوراً وأشكالاً تتسم بطوابعهم ويستلهموا الحياة والواقع لتجاربهم ، فalcراء تشوقهم القصة من وجودهم وحوادثهم ، وقد سئموا المواعظ

المكررة فيما طالعوا من حكايات وروايات تعب التكلف والغلو في تصوير أشخاصها وتهاويلها .

وكانت مجلة « المكشوف » (١) قبيل الأربعين من هذا العصر توجه عنايتها للفن القصصى الذى أخذ يشيع فى أدبنا الحديث ، فأقامت مسابقات للتنافس فى هذا اللون ، وقد فزت بتجربتي الفنية فى هذه المباراة الكبرى التى شاركت فيها أقلام ناضجة وفجة زاد عددها على الخمسين ، جرب أصحابها القصة فاشلين ، فلم يفتروا عن معاداتى لنجاحى ، وصار بعضهم من أعلام الأدب دون نتاج فى هذا الفن ، على أنى صنت اعتزازى بسبق لم تدركه المحاباة فى الجوائز اذ ظفرت بتحكيم النخبة من نوابغ لبنان، وبتكريم صاحب «المكشوف» وكنت مبتدئة بالقصة بعيدا عن منبتى فشعرت بتشجيع حفزنى للانطلاق والتمرس بهذا الفن الذى أحببته .

وأخذ عمر فاخورى يبسط لقرائه أدب القصة ويأتى فى مقالاته على حياة القصصين العالمين ومذاهبهم فى فنونهم وبصائرهم النافذة الى حقائق الأمور وطبائع الناس مما جعلهم يتفوقون ويبدعون ومما قال عمر فاخورى فى التكامل الفنى فى القصة نكتة من نكاته المستحبة « متى تشبته على المؤلف وعلى قرائه حوادث القصة وأشخاصها أهى موضوعة مبتدعة أم هى قطع من الحياة الواقعية الحقيقية ؟ .. ذلك هو سحر الفن ... »

وكان يحس هذا السحر وهو بين يدي جدته تحاوره وتحدثه بالفن الذى يستهوى الكبار والصغار فقال : «أيمكن أن ينسى أحدنا الأقايصص التى أسعدت طفولته والتى تتوارثها الأمهات ، وهو لعمري ميراث ثمين لا غنى للأم عنه بل من واجبها أن تزود منه ،

(١) منشئ المكشوف الشيخ فؤاد حنين من رواد التجديد فى أدبنا

الحديث .

ولطالما فكرت فى جمع هذه الأقاصيص الطلية الشائقة فى كتاب
بأسلوب سهل يقرب على قدر الامكان من الأسلوب الذى تروى فيه
فلا ريب ان مثل هذا الكتاب تكون له قيمة فى آدابنا العربية « (١)
ففى كتابه (الباب المرصود) نشر مقاله « كنوز الفقراء » وكان من
حكايات جدته تناول احداها عمر فاخورى بفنه وأسلوبه وأسبغ
عليها روعة الأداء والقصة ، فجاءت طرفة شائقة قال فيها معجبا
بالادب الشعبي عن العرب : ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا
أو تصور وجود غير وجودنا وقفا على وحى الانبياء والشعراء فان
للعمامة فى هذا الخلق والابداع اليد الطولى ، فاذا كان فى الامر بعض
الشك فان الشعوب تلتقى مع أنبيائها وشعرائها على صعيد واحد
وان فى الأدب الشعبي أو «الفولكلور» كما يسميه الفرنجة طرائف
شائقة ممتعة غزيرة المعانى سواء الأقاصيص والأمثال أو الأساطير
والعقائد » .

وكانت سلوى الصبية الصغيرة تستمع لحكاية « كنوز الفقراء »
وهى فرحة وجلة ، لأن فيها البقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز
الفقراء ، وهى تخشى هذه البقرة ، فقالت لأهلها اذا جاءتنى ونادتنى
قومى خذى نصيبك يا سلوى فسأقول لها :

– انى أخاف لأنى صغيرة فضعى نصيبى على عتبة الباب .
لكن أم سلوى ضمت صغيرتها الى صدرها وعوذتها قائلة :

– بسم الله الرحمن الرحيم .
كانت هذه الطرفة الممتعة عند عمر فاخورى الذى صاغها بقلمه
وفنه فأودعها كتابه «الباب المرصود» ذكرى الصغيرة (١) التى تزوجها
عمر وهى فى نصف عمره ورباها على يديه ، حتى فقدتها زهرة ربا
وهى تفتتح عن أول ثمرة ، ولما فجعه الموت بأفدح نكبة فى حياته

(١) مجلة الكشاف ص ٢٧١ .

(١) هى سلوى طيارة بنت خالة عمر وزوجه .

بكأها قلب عمر طويلا وانطوى على نفسه وعليها فى منزله بضعة أشهر منقطعا عن الناس وعن الكتابة لا عن الكتاب الذى كان فيه عزأؤه وسلواه ، فعكف على القراءة هاجرا دفاتره وأوراقه وفيها صور ابداعية قصصية استقاها من ينابيع الحياة حتى خرج من كآبته وفجيعته الى السوق والطريق ، دافنا همومه فى كفاح أدبى جديد ، وكانت له لفتات الى الحياة الشعبية بالأساطير الممتعة ، كان يعتزم أن يفيد منها .

ولعل أروع المحاولات القصصية التى وضعها عمر فى سطورهِ وصفحاتهِ هى قصة حياته التى لم يكتبها هو وإنما كتبتهما المحن المتعاقبة ، حتى خطر له يوما أن يجرب الرواية الواقعية فأنشأ فصلين من روايته « حنا الميت » كانا بشارة ابداعية لتفتح عربى جديد . .

ولو أن عمر فاخورى القصصى المبدع تفرغ لهذا الفن الذى جرى سره وحبهِ فى عروقه لأعطى أدبنا الحديث آثارا لا تبلى .
وحين ترامت نفسه على ما تجافى عنه من قبل كانت يد الموت تدهمه بخطفة معاجلة ، هالت المستبشرين بما قدم من أدب زاخر بالفن والابداع .

الخطيب

لم تتغير لهجة عمر فاخوري وطباعه في خطبه وأحاديثه منذ وقف خطيبا في القضية العربية أول وهلة وهو طالب متحفز ومعلم صغير ، ولم يمض الا القليل على القاء بحثه العربي الأول في البئر خشية السلطة الغاشمة التي كانت تلاحق الناقمين عليها النازعين في اتجاههم نزعة استقلالية تحررية حتى انطوى الحكم الاسود وبرز في لبنان والبلاد العربية استعمار غربي جديد قسم بينها الحدود والقيود فتصدت لطغيانه بحسب السوانح والظروف أقلام الأدباء والصحافيين ومنابر الخطباء الذين عرفوا كيف يهزون المشاعر القومية ويفتحون البصائر على ما حل بالشعب والوطن .

وبديهي ألا يجرؤ على ذلك الا رواد الفكر والحرية ممن أوتوا الشجاعة وألفوا العراك ، وكان بعضهم يجمعون بين الشعر والنثر في خطبهم اذ يستلهمونها بأبيات تمهد للفكرة والهدف ، فيما يخاطبون به الجمهور .

وكان الجمهور على اختلاف وعيه ومنازعه يستمع للخطباء ويتلقى بالشوق والحماسة كلامهم ، وقد لعب الشعر القومي والخطابي دورا كبيرا في تعبئة النفوس بالنخوة العربية وتغذيتها بمعاني الوطنية والمثل العليا واعادة الناس الى ماضى الأمة في تحررها من الظلام والأوهام وبناء مجدها بالعلم والاخلاق والحرية .

في تلك المحن والأزمات التي اخترعها الاستعمار لتعويق التحرر من التخلف والفساد راجت الخطابة العربية على اختلاف موضوعاتها في الجامع والمدرسة ثم في الجامعة والندوات ، داعية

للتربية القومية والتهذيب والاصلاح وكان عمر فاخورى الأديب المرموق والموظف الكبير بين الخطباء والمحدثين فى الندوات الفكرية والكشفية وفى الجمعيات الوطنية والحيرية ، فما تجافى عن دعوة الخطبة أو حديث ، فاذا وقف خطيبا بسط سحره فى النفوس ، والمنبر أو الموقف يهيب للموهوب روحا تنطلق بما يريد ، وكان عمر فاخورى الذى تجافى عن الاطالة والاستطراد لا يداور فى خطابه أو يصطنع المؤثرات اللفظية فى معانيه ، فقد ابتدع أسلوبا فى الخطابة كما ابتدع مثله فى الكتابة ، وكان بسحر أدائه والقائه ينقل المستمعين من طور الى طور ولو كان تفكيرهم لا يرقى الى النعم ويستطيع بما أوتى من رهاقة الحس وسعة الثقافة أن يرفع وعى الجمهور اليه ويجعله يشعر بوجوده فيصغى اليه بالأذهان والقلوب ، وما كان يخاطب الناس الا بما كانوا يفكرون ويشعرون ، وهذا سر تفوقه فى محاورة النفوس وكأنه أتقن منطوق البلاغة فيمضى بسامعيه الى ما يشاء .

ولا أذكر أن عمر فاخورى أطل خطابه أو قال كلاما مكررا حشد فيه الترادف اللفظى أو ذخائر المحفوظات لحين الطلب والحاجة ، بل كان يتناول فى خطبه وأحاديثه ما يموج فى المجتمع من شئون ومشكلات ، متحدثا عن مواجد الشعب وأشواقه للتطور فى حياته وكفاحه وكأنه يسرد قصة يصب فى حوادثها الحقيقة والواقع ويشفق من التصريح بها ، فيجعل مستمعيه يدركون ما كان يعنى وماذا يريد . . وكل عبارة فى خطبه كان لها صدى فى الحياة تشد الحضور الى آفاق أبعد مما بين أيديهم وتشرق روح عمر فى خطبته فتصفو نبراته ونكاته ولا يتكلف إشارة أو إثارة ليرى مواقع خطبته أو حديثه ، فالكلمات الصادقة اذا خرجت من القلب دخلت القلب دون استئذان ولم يكن التطرف على ثورته الصامتة من طبعه وسيرته ، فما تورط بفكرة نابية ولا أقدم على رأى يلقيه متعلما أو معلما ، على أن عمر فاخورى لم ينفرد فى تلك الايام بهذه الميزات

فى خطبه وزهوه أدبه ، فقد عرفت منابر لبنان خطباء متفوقين كان من ألمهم فى عهد عمر وأبعدهم صيتا أمين الريحانى رائد الحرية والتجديد والطيب نقولا فياض الذى كان يستهوى العقول بفيض بيانه وشعره وبراعة القائه ، ومنهم محيى الدين النصولى خطيب « الكشفية » والتربية القومية .

ولما تطورت الخطابة بتطور الثقافة والتعليم ظهرت المحاضرة والمناظرة فما استجاب لهما عمر ولو جربهما لأعجب القوم وأفادهم ، غير انه لم يكن يتكلف ما ليس من ميله وشأنه ، لكنى ألقى فصولا نقدية وفكرية على مثقفين وجامعيين توسع فيها وتعمق ، ولا يزال بعض الذين سمعوا عمر خطيبا يذكرون مواقفه الوطنية والانسانية فيما تناول من موضوعات حية فى فكرتها وحوادثها ، فمن أروعها ما جاء فى خطبتيه ، الحيوان والانسان ، (١) و ، اليتيم العربى ، (٢) .

فقد ساءه أن يصير هذا المسكين كأنه علم من الأعلام أو مؤسسة عامة كلما وفر نفر من الصالحين عنايتهم السمحة على ما يسمونه ، اليتيم ليتخذ حجة للكلام او للاحسان ، فقال عمر : ان العناية بشأنه تغذية وتربية تتصل بالمبادئ الادبية والاخلاقية التى يدين بها مجتمعنا الحاضر ، وفى رأسها مبدأ الخير الذى أكب الحكماء والمفكرون على تأويله وتعليقه ، ففرقوا بين العدل والخير وطال الجدل حول هذه القضية حتى بقيت معلقة او مختلفا فيها ولو استغنت البشرية عن هؤلاء الحيارى فى التفسير والتبرير لسنت قانونا هو أفضل من كل الخطب والشروح والحلول التى ينوء الضمير الانسانى بعبئها الثقيل منذ قام فى الدنيا أول حكيم أوداع الى الخير .

(١) مجلة الكشف ١٩٢٧ .

(٢) أديب فى السوق .

تري ، متى نلج باب المدينة الفاضلة التي لا يلهجون فيها
بذكر اليتيم ؟ - حيث لا يتيم .

بمثل هذه الآراء والخواطر كان عمر فاخوري يخطب ويحاور
ولا يتخلى عن دعوة لها منذ انفتح بابه الموصود على مصراعيه وهو
خلفه يكتب ويتأمل حتى زهد في الادب الصرف الذي لا يقرؤه الا
القليل وهو الباقي للتراث والفكر والثقافة .

ولما زاحمت الصحافة الاذاعة كان عمر فاخوري من أقدر
المحدثين فيها فكانت خطبه وخواطره تنصب في سمع اللبنانيين
وقلوبهم وعيا ومحبة وشعورا بالعزة كلما رأوا بأعينهم استقلال
الوطن يستكمل شروطه ومقوماته « كشخص الحبيب تنحسر عن
ملامحه الوسيمة عمة الخفاء ، وكان هواء كما قال او هوسه في
تلك الفترة بالاستقلال ما يسمى بالوحدة الوطنية التي لم تكن
مقصورة عليه بل شاركه فيها أكثر اللبنانيين » ولن تكون من صنع
الشعراء والكتاب الذين يدعون لها ، بل من نتاج مصنعين اثنين
هما : الثكنة والمدرسة ، على ألا يقوموا على العلة المزمنة المتمثلة
بالبطائفية (١) .

وحمل عمر في ذلك الحين حقيقة لبنان في رسالته العربية
الاصيلة فكانت خطبه وأحاديثه تدور حول هذه الرسالة .

وكان يودع كلماته الثائرة « طعم الحقيقة التي قال عنها : انها
ليست مرة وليست حلوة وان لها طعما خاصا هو طعمها » .

وقد يتساءل ناقد عما جعل عمر فاخوري يعد في الخطباء ،
وجوابه عندي ان ليس من شرط فني للخطيب محتوم ، فمن استطاع
من المثقفين وذوى الشخصيات الفكرية ، أن يخاطب الجماهير بما

(١) الحقيقة اللبنانية .

ينفعهم ويرضيهم على اختلاف وعيهم وأذواقهم وكان ذا رنة ومرانة
فى البيان والأداء ، فهو خطيب ولم يخرج الجاحظ فى كتابه « البيان
والتبيين » عن مثل هذا التعريف للخطيب . وعمر فاخورى كان بهذا
التعريف خطيبا ومحدثا من الطراز الرفيع ، وقد عصمت اللغة
لسانه عن الزلل ورفده الفن والبيان بأطيب الكلام ، ولكم عرفنا
خطباء ومحدثين اذا وقفوا أو جلسوا للكلام شققوا بأشداقهم
ونمقوا العبارات بموضوعات لا تطيب ولا تفيد ولم يشفقوا على
السامعين بالاطالة المملة والتكرار السخيف واللحن الشائن وقد
أدركهم من عبوب الخطابة الركافة والحذقة والإشارات المسرحية ،
وان الذين لم يشهدوا عمر خطيبا أو محدثا وانما قرءوا كتبه أوحى
لهم هذه الخطب والاحاديث بتمثل شخصه تلقاءهم هادرا بعبارات
التي ترن فى صدورهم وهو يخطب بها من وراء الغيب وهذا عنوان
صدقها وسر تأثيرها فى السامعين والقراء .



مرکز تحقیقات کتابت و اسناد

نائر لا شعاعر :

أكثر أدبائنا المعاصرين بدءوا حياتهم الفكرية والفنية شعراء أو نظامين ، فما كاد أحدهم يتعلم اللغة وقواعدها ، ويقرأ جانبا من المنظوم والمنثور حتى أخذ يجرب قلمه فى المحاكاة والتقليد ، فإذا كان مطبوعا قال الشعر عفو الخاطر وعلى سجية الالهام ولو لم يتعلم أصوله وأوزانه ، فطه حسين جرب نفسه ومواهبه فى الشعر والعقاد استهل أدبه فى نظم القوافى ، لكن الاول تعلق بالنثر الذى أوتى فنه وأسلوبه ، وبقي عباس محمود العقاد مثابرا فى الصناعتين جامعا بين الموهبتين كالأديبين فى دمشق وبيروت شفيق جبرى وأمين نخلة ، أما المازنى إبراهيم فقد بدأ شاعرا ثائرا أنشأ مع العقاد وعبد الرحمن شكرى مدرسة فكرية تحررية أداروا فيها معارك النقد ليزحزحوا بحملاتهم العنيفة مكانة الشعراء والكتاب المشهورين كشوقى والمنفلوطى وغيرهما ممن سموهم المتكلفين والمقلدين ، ولما أحس المازنى أنه لا يستطيع أن يقهر بشعره من ناوأم تحول الى النثر كاتباً متفوقا يفلسف الحياة بأسلوبه وطبعه ومن خلال رأيه ومزاجه .

ومثل هؤلاء الرواد فى أدبنا الحديث كثير من الشعراء والكتاب جربوا نظم القوافى فى شبابهم ومطالع طموحهم ونبوغهم ثم عدلوا عنه الى غيره من فنون الادب أو تشبثوا بالشعر تحديا وتكلفا .

ولم تكن هذه الظاهرة مقصورة على الادباء العرب فقد عرفها الغرب فى آثار أدبائه الشيوخ والشباب ، فأناطول فرانس بدأ شاعرا وجورج دوهاميل جرب النظم فى تعبيره ، والنقاد يؤثرون ذوى

التجارب فى صياغة الشعر قبل أن ينصرفوا الى النشر وحده أو الى
نتاج الموهبتين .

وعمر فاخورى بدأ حياته الادبية شاعرا مجددا ، ثم انصرف
الى النشر الذى أبدع فيه أسلوبا ووسع خواطره وأفكاره بعد أن
عانى النظم مدة طويلة لم يسلس له فيها القياد ، فأيقن بأنه خلق
ليكون ناثرا لا شاعرا ، وان جاء نشره فياضا بالشعور مواجا بروعه
الفن وسحر البيان .

وقد أودع عمر دفاتره القديمة قصائد ومقطوعات من شعر
صباه ، أحس فيها ضعفا وتكلفا وما كان عمر فاخورى فى أدبه الا
صادق الموهبة بليغ التعبير ، غير أنه حفظ منظوماته فى كراريسه
للمذكرى والتأمل ، وكان فيها لوعة وحنين ووجد وتصوير ، طواها
بين أوراقه « وتاب عن النظم توبة نصوحا فكان كما قال فيه كعاصر
الخمير الذى ما كاد يختم زجاجة ليقربها قربانا على ما فيها » لذة
للمشاربين « حتى كتب عليها «خل» وألقاها فى زاوية المطبخ ..»

كذلك كان رأيه فى شعره حين نظمه وجمعه فى دفتره وجلس
يتأمل فيه ويعيد النظر فى ألفاظه وقوافيه فلم تعجبه ، انه يريد
على نحو تعب فى سلوكه ، لقد نقح منظومه وبذل فى بعض معانيه
لكنه لم يكن يريد أن يكون من النسخ المتشابهة فى بواكير الشعراء ،
ولو عدنا اليه اليوم لوجدنا فيه نزعة تجديد ، وذلك باستعماله
أبياتا قليلة بالقوافى المتبدلة ، ولعل هذه الجدة فى نظر عمر جاءت
من قراءة الشعر الفرنسى وكان مولعا به فدل بذلك على رغبته فى
انتزاع الشعر العربى من القوافى المتعددة المتواترة .

وما أروع قصة عودته الى دفاتره العتيقة - ولم يكن مفلسا من
النتاج - بل كان مشدودا الى ذكريات من بواذر أدبه فى ذلك النظم
الذى عاناه ، ففي عام ١٩٢٦ مد عمر فاخورى يديه وعينيه الى أوراق
له قديمة فقال : « جلست ذات يوم مضربا عن الاعمال والجهود

الباطلة ويدأى تعبثان جادتين فى البحث عن لا شىء . . وهكذا عثرت
يمناى - ويسراى لا تعلم - بدفتر أسود صغير ، هو بعض ما بقى لى
من عهد الصبا ، أخذت فى تقليب أوراقه الرثة الصفراء فانبعثت
منها رائحة القدم والبلى ، كأنى دخلت غرفة أحكم قفل أبوابها
ونوافذها وهجرت زمنا مديدا .

فما الذى رد عمر فاخورى الى أوراقه البالية الصفر التى وصفها
فى مذكراته ؟ انه الحنين الى الصبا والشعر ورفاقهما وكل ما يعود
به الى نشوته فى منظومه وتجاريبه فى هذا الاداء الذى يأخذ به أكثر
المبتدئين فى الادب ، فلنستمع لعمر وهو يحدثنا عن دفتره العزيز :
«دفترى هذا على ضالة حجمه كالقدح المألآن لا تزيد على ما فيه قطرة
الا طفح . . ليس بين سطورره وهوامشه موضع ، فيه آراء وأبيات
شعر وخلاصات كتب فى العربية وبعض اللغات الاجنبية » .

ان هذه السطور وما تلاها فى دفتر عمر تقيم البرهان على
عناية صاحبه بحفظ النصوص والابيات التى كانت تعجبه ، فيكتبها
بدفتر صغير فى خلال مطالعته ، ويعلق عليها ، وفى هذا الدفتر
تحدث عمر عن تردده فى نظم الشعر زمنا خشية ألا يتسع له ما فيه
من خيال لكنه أقدم

وبعد أن كتب أبياتا معدودة من قصيدته الاولى - ولعمر بضع
قصائد كتبها وهو ما بين السابعة عشرة حتى الثالثة والعشرين من
عمره - بقى أياما لا يجرؤ على الدنو منها بزيادة أبيات فيها أو تغيير
فى ألفاظها ومعانيها ، فكان ينظر اليها كما ينظر المحب الى حبيبته
مع علمه بأنها غير تامة وأن فيها ما يجب بتره بحق وعدل .

وتصور عمر نفسه تلقاء شعره « بعاطفة الاب أو الام أمام
طرفتهما » فى الاسبوع الاول ، يعلمان أن شد العصائب على أعصاب
الطفل الرطبة مما يقويها ، لكنهما يخافان أن يؤلما ويسمعا بكاءه . .
بيد أنهما بالرغم من ذلك سيقدمان بعد الاحجام وأنه مقدم على شد
أعصاب طفله .

وكان طفل عمر مقطوعات شعرية فى كلمات موسيقية وصور
مظلمة ، مضطربة المعانى والاوزان ، ومع ذلك عطف عليها عمر لأنها
عبرت عن شعوره وخواطره فى صباه ومستهل أدبه ، وكان من
عناوين قصائده : ذكرى الصبا ، اننى حزين ، خيبة الحياة ، الحنان
فى البؤس ، أمة العرب .

ولما شد عمر أعصاب «طفله» فى تجاربه الشعرية كان مشفقاً
مترفقاً ، أعاد النظر فيها ثم طواها مؤمناً بأشياء كثيرة منها انه سوف
يجدد فى الشعر . وقد جعلته هذه الذكرى البعيدة يعقد مقارنة بين
أبى تمام الشاعر العربى وبين «رينيه بازان» الكاتب الفرنسى اللذين
اتفقا على بعد الشقة بينهما فى العصر والمصر ، على ان القصائد عند
ناظمها والكتب عند مؤلفها هى كالابناء عند الوالد الحنون . «والقرود
فى أعين والديه غزال» ولا أدرى كيف لم يذكر عمر فاخورى فى هذه
المقارنة البارعة معلمه فى السخرية الادبية ونده فى حب الكتاب ،
أبا عثمان الجاحظ ، الذى كان يعد مؤلفاته بمثابة أبنائه ، فقد
خرجت من نفسه وعقله ولا يستطيع أن يفضل أحدها على الآخر .

واذ كانت تجارب عمر فى الشعر وذكرياته فى أيامها عزيزة
لديه فقد عاد الى جمع ذكرياته عن الشاعر الذى كان فيه وضماها
الى مقالاته النقدية التى تلم بموضوع الشعر من بعض نواحيه ،
وكان عمر فاخورى قد نشرها فى أيام سعيدة من عمره ورآها ذات
قيمة فى حياته وحده لا فى حياة الأدب على أن أكثر ما دار فى
موضوعاته عنايته بالشعر ونقده ما وصل اليه منه ، فدل على
ثقافته الفنية العميقة وذوقه المصقول ، وكانت سخريته الناعمة
النافذة ترافق رأيه وتعليقه على الشعر الذى كان شائعا فى أيامه
وعلى الطريقة التقليدية والمنبرية ، فيحتفى به القراء لا لما
وجدوا فيه من صناعة فنية جمعت بين الانتاج والابداع ، بل
لأنه كان يحمل صورا قومية وأحداثا وطنية فتشره الصحف

في صدورهما كما تنشر أهم الأنباء والآراء في حوادث النضال والمجتمع ، على أن عمر فاخوري الذي أحب الشعر والحديث عنه متغنيا بروائعه وتراثه الأصيل متhekma في نقده على ما كان يذاع في الصحف أو 'يلقى في السوانح والحقول « ليس فيه الا « طواحين ألفاظ » لا « حملة الالهام » الذين يسترقون السمع من عالم الغيب ليعودوا منه بأنغام ساحرة وقد ملثوا أعينهم من جماله ليخلعوه على أدبنا فلو لم يكن ذلك العالم موجودا لأوجده الشعراء حقا وصدقا لا النظامون الذين يملثون الورق حبرا والمسامع وقرا .

وتصدي عمر فاخوري في مقالاته النقدية للشعر للحملات العنيفة في عصره على التقليديين الذين لم يتزحزحوا في صناعتهم المبنية على المحاكاة والترديد دون أن يشارك فيها أو يدخل معركة من معاركها في لبنان أو على ضفاف النيل وكان عمر في تلك الايام كثير المطاعة قليل الكتابة ، فلو شاء أن يكتب سيرته بنفسه لاستطاع بدون عناء اختصارها في هذه الجملة الجامعة « مطالعات في زاوية بيت » ، فان الكتب التي قرأها عدها أعظم الحوادث في حياته وقد أتت عليه أعوام لم يقرأ في خلالها الا دواوين الشعر ، عربية وأجنبية ، فأولع بالمقارنة بين الشعراء العرب والأجانب لاكتشاف أوجه الشبه أو الخلاف بينهم ، فلما وقع بين يديه شعر الياس فياض الأديب اللبناني في قصيدته « النجوم » عادت الى ذاكرة عمر فاخوري قصيدة « المجرة » للشاعر الفرنسي « سولي برودوم » ، فأحس بينهما شباها عجيبا ونقل قصيدة « المجرة » الى العربية ، وفياض الشاعر الكبير كان مثل عمر فاخوري يحب الشعر الفرنسي ، فاذا هو يقتبس قصيدته النجوم من الشاعر سولي برودوم وينسى أن ينسبها الى الترجمة ، فيأخذ عمر فاخوري بتلايب فياض كاشفا هذا الاقتباس ، والنسيان ذاكرة في صدره سبق «الريحاني الأمين» الى نقل اللزوميات المعربة للانكليزية ، فكان

ذا فضل كبير فى نقل أدبنا الى أدب العالم ، والريحاني نفسه لم يسلم من تهكم عمر وكان من أعز أصدقائه اذ رآه ينقل الى الانكليزية قصيدة « النجوم » لالياس فياض دون تحقيق فى أصلها ، فكأنه فى ترجمتها رد البضاعة الى أهلها دون أن يدري ..

ومن عجب أن يدعى لنفسه (١) هذه القصيدة المقتبسة كل من الشقيقين الشاعرين الياس ونقولا فياض وهما من كبار الشعراء الذين اتقنوا الثقافة العربية والفرنسية .

ولم يكن عمر فاخورى متعنتا فى نقد الذين يقتبسون من ادب الغرب بأمانة ، فقد شجع صديقه الشاعر الشعبى عمر الزعنى أو « حنين » لقبه المستعار ، وكان الزعنى صديق عمر قد اقتبس فى صناعته الشعرية ترجمة لقطعة من أغاني « بيليتيس » للأديب الفرنسى بيرلوتيس جاء الاقتباس أفضل من الأصل ، اذ استمد عمر الزعنى عنصرا غريبا تمثله وهضمه ثم زفه الينا وكأنه بضاعتنا ، وهكذا تحيا الآداب القومية فى الأمم (٢) ، فانها لا تعيش منطويا على نفسها وخصائصها بل لا بد لها من تخير ما يلائمها من أفكار غيرها ومن تطور الذين تقدموها فنا وعلما .

ولقد استحسن عمر فاخورى ابتداء الزعنى هجوا اجتماعيا كان يردده بالعامية البيروتية ويمثل فيه جوانب من حياتنا وتصويرا لأخلاقنا ، ترك ضجة فى السياسة والمجتمع ، ولا يزال الناس يترحمون على شاعر الشعب فيما تناول من تصوير وتشهير لمساوىء مزمنة وشوائب فاشية رمى الناس فيما يمسه من حقائقها المؤلمة وهم يضحكون وليس على صديقهم الزعنى من حرج اذا كان استمد لفنه فى الهجاء الاجتماعى مادة من لحم المجتمع

(١) من مقال رائع لفقيه الفن القصصى كرم ملحم كرم اللبناني .

(٢) الباب المرصود ص ٤٢ .

ودمه فرفعت يده على القروح والجروح » ومن قال ان الفن
طبيب جاهل دجال يخدع العليل عن علته « (١) .

ولا ادرى كيف تعلق عمر فاخورى بالحياة فى شتى معانيها ،
فهو فى الشعر والنثر يلتمس صورها وأطوارها وما يعج فيها من
خير أو شر ، لقد كره الجمود والجامدين ، على أنه لم يحمد
للمتطرفين من المجددين صنيعهم فى قطع أصولهم من التراث الذى
يربط الغابر بالحاضر ويتطلع الى المستقبل بآمال كبار ، ولعل
عمر فاخورى فى طبيعة النقاد الذين تلمسوا فى مطالع نهضتنا وحدة
القصيدة فى مبناها ومضمونها والملائمة بينها فى الموسيقى اللفظية
لتهىء نفس المستمع أو القارئ الى ما كان فيه الشاعر وهو يعد
قصيدته ، واذا كان يحبذ الاقتداء والاقتباس من الآداب العالمية
لادخال التطور والتجديد على الشعر العربى الحديث فانه كان
شديد الزراية على من يستخفون بوعى الناس ويدعون ما ليس
لهم فى تعاطى الشعر وضيقه .

وبقى عمر فى حياته وأدبه مأخوذا بالشعر ناقدا لا شاعرا
يقراً دواوينه القديمة والحديثة و « يتلجلج الشعر فى خاطره
ويتلثم به لسانه ، ويهم به ثم تدركه رحمة ربه فيمسك ، معزياً »
نفسه كلما دعى الى مآدب الشعراء بوقفة عند طرف المائدة أو على
عتبة الباب كالمشدوه ، فى عينيه رعوس السحر من ذلك العالم
الآخر (٢) .

وقد تطول وقفاته وتأملاته فى هذه الساحة الشاسعة التى
تقع فيها أشتات الجواهر ، وأصناف الذهب والفضة والخزف
والنوى حتى سماها الأصمعى « ساحة الملوك » وكيف يهجر عمر

(١) عمر فاخورى فى مقدمته لحنين .

(٢) الباب المرسود ص ١٧١ .

هذه الساحة التى فيها يتبخر أحبابه من الشعراء وقد تفاوتت فيها السجاياء والقرائح ورسخت التقاليد حتى تعقدت وأظلمت، فانفلتت من بينها مواهب ثائرة تلمتس الضياء والغذاء من الشمس والحياة ، وتستلهم أدب العالم فى طباعه وعناصره ، لتخرج على غرار شعراء عربيا حديثا يتقبله ذوق العصر ومزاج القارىء الجديد ، على الا يكون من نمط واحد متشابه النسخ والأزياء ، وهذا ما بحث عنه عمر فى مطالعته الطويلة حتى وقف عند رفيق عزلته وشقيق نفسه « المتنبى » ، فلم يفارقه فى داء أو عناء بل كان يحدثه ويحاوره فيما قال أو تقولوا عليه ، حتى استوقفه شطر من بيت له فى قصيدة مدح لأحد الأمراء قال فيها متغزلا بمحبوبة وهمية نظرية وكما كان يقضى العرف الشعري فى فاتحة القصيدة العربية :

« تنهى سكون الحسن فى حرركاتها » فكشف عمر عن براعة المتنبى الذى مزج غاية الجمال بحركة السكون ، وقد أحس فى كلمات أبى الطيب إشارة الى «علم الاستاتيكا» ، عند ذوى الاختصاص به من الغربيين الذين نشروا فى موضوعه كتباً ومؤلفات وكان عمر فاخورى ناقد الشعر لا يفوته التتبع فيها والتمحيص ، ولم يسبق عمر كاشف للمعنى الاغريقى الذى تهادى فى « تنهى الحسن فى حرركاتها » .

كان فيلسوف اليونان زينون ينكر حقيقة الحركة ، فقام سقراط من مجلسه ومشى ليدله على بطلان مذهبه قائلاً : يا زينون اننى غير ساكن فأنا متحرك . . وكان زينون هذا معجبا ببطولة آشيل الذى مات تحت أسوار طروادة ، فتحدث عن السهم المريش الذى كان يطير من قوسه حتى وقع فى التناقض اذ قال بالسكون لكنه نسي فلسفته تلقاء الحركة وجاوز تلاميذه فى الحس ليكون ساكناً أو متحركاً ، حتى جاء عمر فاخورى فاكتشف عند صديقه

المتنبى ما لم يكتشف الذين تزاحموا على ديوانه شرحا وتشريحا وتفصيلا وتأويلا دون أن يهتدوا الى مثل ما اهتدى عمر . وعمر نفسه رأى عند معلمه الجاحظ فى احدى صورهِ الفئسة ملامح سكونية فى القاضى عبد الله بن سوار وقد أودعها الجاحظ كتابه « الحيوان » فدلنا أقوى دلالة على ايمانه بعبقريّة العرب وسبقهم المختصين بالعلم الاستاتيكي الى ما ذهبوا اليه فى كتبهم وآرائهم ، فكتب عمر فى هذا الموضوع بحثا مطولا باغت صفحاته الثلاثين ولولا ايثار عمر الايجاز الملىء لجاء كتابا كبيرا .

لقد جرب عمر الشعر ثم تاب عن نظمه حين أحس أنه لا يمكن أن ينبغ فيه ، لكنه بقى مشدود الحس والنفس اليه يعد الصادق فيه أشرف الكلام واعلاه ، وكان الشعر أطوع لسجاياء الملهمين المطبوعين فلو انقاد لعمر لراع قراءه بما وراء الفاظه وقوافيه من المعانى العميقة والأهداف .

واذا عددنا المقال كتابا صغيرا فإن مقالات عمر فاخورى فى نقد الشعر وتحليله وتفسيره تعد كتبنا ضخاما لو رددناها الى ما كان يصنع القدماء فى شرح الدواوين والتعليق عليها أو التحقيق فيها ، ولو قارنا ما فيها - وعمر فاخورى أثقن فن المقارنة فى أدبنا الحديث - على ضالة حجمها بما ظهر من دراسات أدبية ومنهجية، لوجدنا موضوعات عمر فى الشعر ونقده وآرائه خلاصة المألوف فى أيامنا ، وهذه الناحية فى أدبه لا تزال خفية لم يكتب لها الانتشار لتحل مكانتها فى النقد الأدبى الحديث .

هذا هو عمر فاخورى الناثر الذى لم يغالط نفسه فى الحقائق ، فقد عانى الشعر وزاوله مدة وهو اشد ما يكون تعلقا به وشوقا الى بلوغ القمة فيه ، لكنه أحس بأن جناحيه لا يقويان على الصعود الى ذروة « الأولمب » فتحول الى نقد الشعر والتنقل بين ترائه وأصوله وبين ما جد فيه من تطور فى صياغته ومضمونه

ووحدة موضوعه والحاحه على أن يكون الشعر صادقا متقنا سواء
أكان قديما أم حديثا ، وكان الفيض الشعري الكامن في أدب عمر
لا يمكن أن يفيض فسرى في خلال نشره وأسلوبه وهذا ما رفع قدره
وأبعد أثره في النشر الذي مثل أدبه الأصيل ، فكان كاتباً مبدعاً في
روح شاعر ملهم ، نشر خصائصه فيما عبر عنه بمقالاته التي شفت
عن ذاتية عميقة وموهبة فنية طاوعته في معاناة الفكر والبيان ،
وفيهما تجلى اخلاص عمر لحقيقة الأدب ورسالته ، وتجافيه عن
كل تكلف أو تقليد .



مركز بحوث ودراسات في اللغة والأدب العربي

الفصل الخامس

مقتطفات من أدب عمر فاخوري

ربيعي الأول

منذ أغريت نفسي بأن تتحدث عن الربيع فأجابت بعد لأي ،
وأنا أكتشف أشياء وأشياء ، وكأنني لا عهد لي بها من قبل ففي جنة
البيت أبصرت فجأة ، شجرة مشمش (يزعمون أنها حضرت مولدي)
أعجبنى منها ، أول وهلة ، هذا الزهر الأحمر الضارب الى صفرة ،
عالقا بأغصانها قناديل صغيرة مضاءة في رائعة النهار ، لأطفال في
عيد ، لكن ما لبثت أن عرفت سر القناديل ، فاذا كل واحد منهما
لحظة عتب ساخر ، ترمقني به الزهراء شزرا ، وهي تقول : « الآن
رايتني ؟ » الآن رايتني ؟ .. تقولها وهي تتعمد شدي ، كأنما
يسوءها أن أتقدم ، فأشارك الأطفال أفراح عيدهم .

وخطر لبالي أن أذكر الشجرة ، أمسها القريب حين لم تكن
سوى عيدان جرداء ممتدة في الأفق القاسي أيدي تبسطها الفاقة في
السؤال ، لا لحم عليها ولا دم .. ففاظنى أنها صدفت عنى غير
مبالية ، وطفقت ترفل في خيلائها ، كالصبية الحسناء ليلة عرسها ،
ترسل أخطر نظرة صادقة على حلتها متهادية ذات اليمين وذات
الشمال ، وودعتني بنفحة من أرج ساطع خيل الى انها تقهقه به
ضاحكة .

وسولت لي نفسي أن أثار لها فخرجت الى الجنية واخذت
بخصر الشجرة السعيدة ، فهصرته وهزهزته ، فتساقطت المسكينة
على رأسي وفوق كتفي وبين أقدامي ، زهرات يتامى ، وفيما أنا

واقف أرجو أن أراها مجهشة بالبكاء اذا بها تتلملم بأسرع من لمح
البصر ، كأن لم يك شيء ، فتصلح زيتها الذى تشعث قليلا ، ثم تعود
في خيلائها ، مضاءة بأنوار الربيع .

قلت لنفسي وأنا أتكلف سرورا ظاهرا : « هلمى بنا ، في هذا
اليوم المشرق من أيام البعث .. لنطرح الكتاب جانبا ولنمض الى
الضاحية فنستقبل بشائر الربيع ..

فتبعتنى نفسي كالمرغمة ، وكنت أتلفت ورائى ، حيناً بعد
حين ، لأنظر أين هى .. ومشيت على مهل ، وأنا أسرح الطرف
معجبا ، كأنى افتح على الكون عينين جديدتين لم يسبق أن
استعملهما أحد ، كمثل نافذتين فى دار مهجورة أقفلتا زمنا طويلا ،
فلما آب الى الدار أهلها ، وفتحت النافذتان أخذتا تنظران وكان
الأرض بدلت والسماء غير السماء .

وفيما نحن فى الضاحية نبحث عن موكب الربيع ندق فيه
البشائر ، اذ توجهم وجه الدنيا وتربد بالسحاب ، ثم انزل المطر
علينا مدرارا .

وهكذا عدنا من حيث أتينا ، ونحن نقص على الناس أنسا
رأينا الربيع يدخل البلد متنكرا فى ثوب الشتاء ، مشمرا اذباله بين
الوحل والماء .

— ذهب ربيع وجاء ربيع .

قالت ماري — ماري قرطبا ، التى لا تعرف شيئا عن البروج

لأختها :

— تعالى .. انظرى الى هذه الشجرة الزاهرة فى جنينة
الجيران .. سألنى : « ما هذه الشجرة ، يا ماري ؟ » أجبت :
شجرة مشمش ، يا معلمى ، قال : اواثقة انت ؟ .. نعم . وأعاد
على السؤال ثم أخذ فى الكتابة ليلة بطولها .. فمزق كثيرا من
الورق ، قبل أن يملأ صفحة واحدة .

حنا الميت

فصل من رواية لم تكتمل

١ - الجنائزة

من يلقه ماشيا في تلك الطريق الوحلة التي تصل « البسطة التحتا » بمحلة «حوض الولاية» (١) ، متباطئا كالمتردد او كالوجل ، لا يتمالك من السؤال : ماذا به ؟ أترأه يخاف أن يغادر أحديثه في هذه المادة الرمادية اللزجة الضاربة الى السواد ، التي يلطخ المطر بها ازقة المدينة ، أم تراه يفتش عن شيء أضاعه ؟ يداه في جيبى بنطلونه وهو بالسراويل أشبه لسعته وتكوره مذ عفت الايام على طيات المكواة ، محدودب الظهر ، محنى الرأس ، موزون الخطى - كالمؤاجرة في جنازة ، وكأن طربوشه القانى على رأسه الأشيب ، أحد أكواز الشمندر (٢) الرافلين في ثياب جدد خلعها عليهم عيد الفطر السعيد أشكالا والوانا .

ليس على وجهه النحيف سيما الكآبة التي تستوقف الناظر لأول وهلة كأنما كشف له بفتة عن سر حزن بليغ أو خطب جلل .. لكن المتأمل البصير يلمح في تلك الغضون السمراء أمارات السامة والعياء الشديدين ، التي تكاد تقول : «مالى ولهايتين الرجلين أجرهما ، منذ أربعين عاما ونيف ، على هذه الأرض اللدود ، جرا؟ .. مالى ولهذا الجسد لا افتأ أحمله ، غير عالم هل اتقاضى في النهاية أجرا أم يذهب تعبى باطلا ؟ .. ومتى أحط هذا العبء الثقيل فترتاح أخيرا نفسى ؟ لو انطلقت الغضون فى وجهه على العلوى

(١) من الاحياء القديمة فى بيروت .

(٢) يقال له فى مضر البنجر .

الأسمر النحيف ، لأسمعت مثل هذا الكلام ، كأن الرجلين اللذين يقتلان رجلا غريبا مر منذ هنيهة أمامه دون أن يراه ، أو كأن الجسد الذى يحمل نفسه ، متنقلا بها شرقا وغربا ، جسد جار له يزعجه ، كل ليلة ، صياحه وولولة امرأته وبكاء صغاره .

والواقع أن عليا عاش هذا العمر المديد لم يعرف لحياته غاية قريبة يوشك أن يضع يده عليها ، أو بعيدة يعلل صبره بالدنو منها: لم يعرف غاية يلهيه دركها أو السعى اليها عن النظر فى ذاته وفى هذا الجثمان الذى يحمله هو كما تحمل السلحفاة بيتها . عاش كما يمشى الآن الى غير غاية ، لا يسرع فى خطاه كمن يخاف أن تفوته فرصة سنحت له ولن تنتظره طويلا ، ولا يقف مرة كمن يريد أن يملأ عينيه وفؤاده من شئ أعجبه . . . كان يمضى فى سبيله لا يلوى على أحد . فاذا التفت يمنا لم يلتفت يسرة الا بعد حين ، اقتصادا فى الحركة .

فيم كان يفكر على العلوى ، وهو ينظر فى مواطئ قدميه ، من الطريق الوحلة ، اذ ليس ثمة غير هذا يديم النظر فيه ، وكأنه يقرأ فى كتاب ، متهججا حريصا على كل حرف من حروفه ؟ لعله كان يفكر فى الأرض - عدوه اللدود - التى ما برحت تجذبه بالرغم منه ، وهو يود لو ينطلق من أسرها ، فيطير فى الفضاء ، ويصبح من تكاليف هذه الحياة فى بحره ، وتبا لنيوتن مخترع الجاذبية كما كان يسميه ، فهو أصل البلاء ، وليس أجدر منه بأن يحشر مع الأطباء « مخترعى » الأمراض كما كان يلقبهم . ليت عليا كان نفسا فحسب ، اذن لكان الأمر هينا . . ولكن ما العمل بهذه « الجثة » بيت السلحفاة ، كما كان يقول فى أحاديثه .

ولعمري ، هل الحياة دين لا بد من قضائه ؟ فان عليا ، وفد عرف القروض بأنواعها ، لا يذكر أنه استدان فيما مضى ، شيئا من هذا القبيل . . وطالما حدث ذاته بالخروج من الدنيا الدنية

مختاراً ، لا له ولا عليه ، فكانت تعوزه الجرأة على رأى بعضهم ،
أو يعوقه الكسل على رأى البعض الآخر من صحبه ومعارفه ،
أولئك الخبيثاء الذين لقبوه بهذا اللقب العجيب ، حتى كاد ينسيه ،
اسمه الأول ولا يعرفه كثير من الناس الا به - تعنى : حنا الميت .
وعلى كل ، منذ غلب عليه لقبه ، لم يفكر ابداً فى الانتحار ، كان
اللقب كفاه هذا العناء ، وأراح باله من هموم النقلة ، حنا الميت
فكيف تريدون يا رعاكم الله ، أن يموت الرجل مرتين ؟ ..

ولم يشعر على العلوى . الا أنه دائر فى محوره كرحى مستطيلة ،
طربوشه الأحمر على قاب ذراع ، فى بركة من الوحل وهو بين
صبيين بشباب العيد ، فى كر وفر ، وطرده وعكس ، يتجاذبان أطراف
جاكته ويضحكان .

عاد على العلوى أدراجه ، والظلمة آخذة فى اخفاء معالم
الأشياء . وكان فى مشيته أبطاً من ذى قبل ، يهم ، كما دنا من
القنديل الذى يضىء فى عطفة الطريق ، أن يقف مستبشراً بهذا
الظل الأمين يصحبه لحظة ثم يغيب فى الجدار . ومن رأى الرجل
وظله ، هذا يزحف وذاك يمشى ، خيل اليه انهما على العلوى وحنا
الميت ، كأن الواحد صار اثنين كى يأنس بعضه ببعض فى وحشة
الطريق . لكن حان ميعاد الرجوع الى البيت ، فأسرع على وظله
فى خطوهما ، وقد دار بينهما حوار ذو شجون ، انهم فيه على ظاء
اللاصق بالأرض ، بمساعدة أعدائه على الكيد له ، لنفسه العلوية .
وعبثا حاول المسكين أن يعدو كى يطأ عنق هذا الماكن ، تشفياً من
ظلم المادة .. فكان الظل تارة خلفه وتارة قدامه ، منقبضاً طورا
وطورا منبسطة ، حتى أعيأ خطا ولبطا وبلغا البيت .

إذا كان عامة الناس يعرفون فى كل سنة من حياتهم يوم سعد
أو نحس ويذكرونه بالذكريات الحسنة أو السيئة ، فعلى ام
يعرف الا أعواما متشابهة ليس فى أحداثها ما يخصه بالذكر ،

الخير أو الشر . وإذا كان عامة الناس لا يعنيه من سنيهم الا ذلك اليوم ، طارحين سائر الأيام كما يطرح المسافر الأمتعة المثقلة المربكة التي لا فائدة منها ، « فعلى » لا يدرى الا ان الأقدار حملت كتفيه أربعين عاما بكل شهورها وأيامها : كالمسافر الذي لم يحمل الا سقط المتاع ، غير عالم أين ومتى يحط الرحال . وكان يسميها . الأربعين خريفا . نكاية ب . الأربعين ربيعا .

ومشى حنا الميت ، محدودب الظهر ، محنى الرأس ، موزون الخطى - وقد خيل اليه ، بمثل لمح البصر ، أن يمشى في جنازة نفسه وانه عما قليل سيقف ، متقبلا التعازى ..

وفى صبيحة اليوم التالى كان فى فراشه يتلهى باستعادة ما رآه فى الحلم ، تلك الليلة عما ينتظره فى نهاره الجديد ، اذ أتوه برسالة قرأ على غلافها هذا العنوان :

بيروت : برج أبى حيدر

جناب . المرحوم . السيد على العلوى المحترم :
فلم يفض على الغلاف ، واسترسل فى تفكيره هنيهة وهو يعث بطرف الرسالة متلطفًا ، كأنه يفرك اذن حبيب متجن ، ثم قال :
يحب المزاح .. لكن الله ، ما أشبه مزاحه بالجد ..

وأغمض عينيه مبتسما برؤيا حلمه الرغيد .

من مقدمة الشعر الشعبي للزعيني

صديقي حنين • (١)

لا أحييك وأنا كل يوم أحييك ... وبعد فما أخالك نسيت كلمة من (رينان) قرأناها منذ أيام في كتاب مختاراته : « الأدب الحق في زمان ما ، هو الذي يصور ذلك الزمن ويعرب عنه .. كلمة جامعة من فصل قيم في حقيقة الأدب وعلاقته بالعصر - في الأصول التي منها يستمد ميزات الجمال والتأثير والبقاء » .

وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها ، لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية ، بل انها في هذا الثوب المنوع الألوان البهيج الزى لأحسن استيفاء لشروط البلاغة في المعنى والفصاحة في التركيب ، من تأليف كثيرين من أدباء العصر الذين يحيون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة ، فقصاصارهم اذن أن ينطرح « أدبهم » جنة على هامش الأدب الحق الذي لا يصدر ، سواء أكان فصيحاً أم عامياً ، الا عن مورد واحد .

أما الجنة فيبالغون في تنميتها وتزويقها وتأنيقها ، لكنه « تواليت » الميت الذي لن يخدع طويلاً ، لن يخدع في صفوفنا هذه الفئة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسخ الاقدمين واعسر من تقليدهم ، وتطمع الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة .

هذه الجنة الخراب - وطننا - بما يسمع في جوه وفي بحره ، على أطواده وانجاده ، ببواديه وحواضره ، وحول غدرانه الراكدة

(١) هو الاسم المستعار للشاعر البيروتي الشعبي عمر الزعيني .

وسيوله الراكضة ، من همس وقصف ، وتهليل وعويل ، وحفيف
وعزيف ، وصيحات وأصداء .

وهذه العروس النائحة - حياتنا - بما فيها من مسرات تعقب
حلاوتها مرارة الاحزان ، ومن آمال خائبة لا ترضى استسلاما
للقنوط ، ومن المخازى المتلبسة بالشرف ، والشرف الأشبه بالعار .
ومن سيوف فى مغلوله بأيدي مغلوله .

وهذه الغانية المهجورة لأنها لا تعرف الدلال - عاميتنا -
بنكاتها الطريفة وحنكتها الحصيفة بحقائقها الجارحة وأساطيرها
الساذجة ، وبمولدها ومحدثها من أوضاع ومفردات دقيقة الدلالة ،
وتراكيب وأساليب طلية مأنوسة .

وهذه الشجرة الشرقية الغربية - ثقافتنا - بما تحمل من هدى
الى حسن الاختيار ، ومن حث على فضل الانتقاد ، ومن توفيق الى
ثواب الاصلاح ..

تلك جميعا أيها الصديق ، هي الينابيع التي تفجرت بأغانيك
الجميلة وضعا ، الرقيقة الحنا ، الرفيعة مقصدا ، مستقر الحقيقة
وملعب الخيال ، ملتقى الطبع الصادق والصنعة الجيدة ، وهل أدل
على ذاك من اعجاب العامة والخاصة بها على السواء ، وطربهم لها
فى كل الظروف وبكل ناد ؟ ..

فرنسا الحرة حركة ثورية

من يقل فرنسا -

يقول : ثورة ...

أيما كاتب أو باحث يتصدى للكلام عن « حقوق الانسان » ، وعلى المدى الذي اجتازته هذه الحقوق ، سواء فى مضممار العلم النظرى أم فى مضممار التطبيق العملى ، فلا مندوحة له عن ان يخص الشعب الفرنسى بفصل من أشرق فصول التاريخ وأروعها وأبقاها على الأيام ، والا فذلك الكاتب أو الباحث بعيدا عن احترام نفسه وعن انصاف الحقيقة ، ولنقل دفعة واحدة دون أن نخشى لومة لائم أو تهمة متهم بالاسراف والشطط ، ان امراً هذا شأنه انما « يظلم » عامدا أو متعمدا ، الانسان وحقوقه ، والعلم وكرامته .

لسنا نزعم ان الشعب الفرنسى ابتدع حقوق الانسان المدنية والسياسة من العدم ، ولا أنه ارتجلها بين بكرة وضحاها ارتجالا ، فالمدينة الحققة لا تعرف هذه الاثرة الجنسية التى تريد النازية الضالة المضلة أن يوصم بها الفكر البشرى أشنع وصمة ، وان الحكماء والفلاسفة والأنبياء والرسول ، على اختلاف المواطن والنحل ، نادوا بحقوق الانسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ودعوا اليها ، وليست مراحل التمدن الانسانى سوى خطى ضيقة تارة ، وتارة واسعة ، مترددة تارة وتارة ثابتة ، نحو اقرار هذه الحقوق فى المجتمع بأقرب ما يمكن الى الكمال واكثر ما يمكن من الشمول ، كأن البشرية تسمو الى مثلها العليا فى سلم لولبى ، أجل لكنه سلم ذاهب صعودا ، على كل حال .

أقل ما يقضى الانصاف أن يقال ويجهر به ، هو ان الشعب الفرنسي كان سباقا الى اعلان حقوق الانسان السياسية والمدنية بمدلولها الحديث ، في وجه العالم قاطبة سباقا الى تأييدها ونصرتها في جهد تقطر منه صحائف التاريخ دماء شهدائه وأبطاله .

قد سبقت الثورة الفرنسية وتقدمتها زمنا ، ثورات في بلاد أخرى ، لكن لم يكن لاحدى هذه الثورات المزية العالمية الانسانية التي اتسمت بها ثورة ١٧٨٩ وما تلاها ، فالى الأمة الفرنسية بالدرجة الأولى ، يرجع الفضل في أن حقوق الانسان المدنية والسياسية داخلت الضمير الانساني حتى أصبحت جزءا متما له ، عريقا فيه ، وجاوزت طور الاوضاع السياسية والحكومية ، لى تصبح أسلوب تفكير ونهج حياة ، للأفراد والأمم على السواء .

ان الشعب الفرنسي شعب ثورى بأوسع معانى الكلمة وأسمائها ، شعب « تقدمى » وكأن هذا الشعب يمضه ويحز في نفسه ، عصرا بعد عصر ، وجيلا اثر جيل ، أن يرى البشرية في سباق تطورها الفكرى الاجتماعى السياسى ، تتسكع في مكانها ، تحرك قدميها دون أن تخطو خطوة ، فهذا الشعب يدفع ويدفع العالم معه بعنف ، الى الامام . . ان الشعب الفرنسي يحمل على كاهله أعظم تراث ثورى عرفه التاريخ .

واذا ما ذكر هذا التاريخ ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ فلن يجد بدا من أن ينوه أيضا بثورة الجنرال « دى غول » و « فرنسا الحرة » على الرجعية اينما ثقفت ، وبأى مظهر ظهرت ، سواء في فرنسا نفسها ، أم في العالم بأسره ، اعلانا لحقوق الانسان منفردا ومجمعا . وما يدرينا ، فقد لا تكون هذه الحركة الفرنسية الحرة ، في تراث فرنسا التقدمى الانساني ، آخر حلقات السلسلة . فان من الشعوب من يفرض عليه التاريخ ضروبا من المهام لا مناص له من انجازها .

رسالة لبنان

ولعمري ، أحتاج لبنان - لبنان كما نعرفه قطعة من جغرافيا وفلذة من تاريخ - في أن يتسلق ذروة من ذرا الزمن ؟ وإلى أن يضرب في مسافات الأرض والسماء ، فيجبل أنظارا ثابتة أو حائرة ، في ظلمة الماضي أو غيب المستقبل ، في الآفاق القريبة أو البعيدة . . . ترى أحتاج لبنان إلى ذلك انصب الشديد ، المقعد المقيم ، كي ينتهي به الأمر إلى أن يقول في سره وعلى رؤوس - الأَشهاد : « أنا صغير ، جد صغير . . . صغير جغرافيا ، وصغير تاريخيا ؟ » لقد رأيتم الآن ان لبنان لم يكن ، كي يقولها ، بحاجة حتى إلى المقدمة اللطيفة التي مهدنا بها لهذا الحديث . وسترون عما قليل أن تلك الكلمة . ليست مما يقال قولاً ، بل هي مما يهتف به هتافاً ، فلبنان منذ كان ، لم يقف على ساحل هذا الأبيض المتوسط ، بازاء مدنيانه القديمة والحديثة ، كما يقف الصياد الذي دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة . . لا ، ولكنها قصة شعب من الشعوب ، ما كان صغر جغرافيته وتاريخه ليكفه أو يمنعه عن أن يعطي العالم ، في عصر من عصور تمدينه ، أداة التخاطب المثلى ، وأساليب العبادة الفضلى ، بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول : لعل صغره في رقعة الأرض وفي زحمة التاريخ ، كان حافزاً ذلك الشعب ، دافعا إياه بعزم لا يغلب ، إلى الأخذ بضرب من ضروب العظمة أو السمو أو التوسع ، يكفي به طرح ذاته ويسد غوزها .

وهكذا رأينا لبنان يتبسط سفنا ومدنا ، ويتسامى آلهة وهياكل ، ويتوسع بالحرف والفكر . ومن غاياته المقدسة كان يشيد معابده الزاهية سعدا ، ويبني مراكبه الزاهية بعيدا ، كان له من ضيق ساحته ، وصغر حجمه ، عند المسافة ثارا فلن يقر له

قرار حتى يدرك تأره ، مقربا الأبعاد جامعا. الأضداد ، واصلا
قطيعة المادة والروح على السواء .

ليست الثقافة فى بلد من البلدان ، أو رسائلها فى شعب
من الشعوب لترتجل ارتجالا ، ولا مما يسن فى ضجة المجالس
والمجامع ، ولا مما تحدث به مخيلة شاعر أو ينضج به ذهن حكيم ،
ثم يفرض على الوجود فرضا . فالحياة نفسها (والتاريخ الذى يحكى
حكايته) ليست سوى حوار لا ينتهى بين الانسان والطبيعة .
ويندر أن تكون الكلمة الأخيرة فى هذا الحوار لهذا الكائن من لحم
ودم . . حوار لطيف تارة ، وتارة عنيف ، مضطرب أو منعكس ،
فى صراحة أو جمجمة . . كزقزقة العصفور . . ويهمس وسقسقة
الجدول ، كاصطفاف الموج وتقصف الرعد . . يهمس همس النسيم
أو يدوى دوى البركان .

لبنان ملتقى السبل المتفرقة ، ومعترك الأمم المتنافسة ، ومزدهم
الثقافات المتقاطعة . ما من قوة فى الارض تستطيع أن تغلق ساحله
الغربى ، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للأبيض المتوسط ، من
مدنيات وشعوب يعطيها ويأخذ عنها ، ثم تقذف به تلك القوة واحة
غريقة فى الصحراء ، كذلك ما من قوة فى الارض تستطيع أن تسلخه
عن هذا الشرق السامى الذى وصلته به ، منذ كان التاريخ بل قبل
ان يكون ، وشائج دم ولغة ، وتقاليد وأساطير وعبادات وثقافات ،
ثم تقذف به تلك القوة جزيرة عائمة فى الأوقيانوس ، سيظل لبنان
حيث هو ، وحيث كان ، من الطبيعة ومن التاريخ صلة وصل بين
الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه ، واذا صح أن ثمة مستقبلا
قريبا أو بعيدا لن يعرف الأثرة القومية وما يلزمها من مظاهر الطمع
والفتح والغلبة ، ولا التحريم الفكرى وما ينشأ عنه من تعصب على
اختلاف أنواعه ، فقد كانت اذن ثقافة لبنان هى المثلى ، ورسالته فى
الدنيا هى الفضلى : ثقافة تمازج ، ورسالة تواصل .

ولعل أكرم ما يصدر لبنان من بضاعة ، أبنائوه فى النواحي الأربع من الأرض ، بناة المدن والسفن المخاطرون غير مغامرين .
المثقفون طبعا ، وتطبعوا ، المحافظون فى غير تزمت ، المجددون دون تعسف ، مخترعو الأبجدية وحضنة العربية حديثا ، أبنائوه السمر الميامين ، حملة رسالته الثقافية فى العالم .

سئمت نفس « بودلير » الشاعر الفرنسى فطفق ينقلها من قطر

الى قطر . وهو يمنيها بالنعيم والطمأنينة وهى لا تزدد الا قلقا وملالة ولهفة الى الرحيل . وكان لا يفتأ يسألها فى احدى قصائده الثورة :
« الى أين تريد يا نفس ؟ » . فلما فرغت حيلته ونفذ صبره اجابت قائلة : « حيثما كان ، ولكن فى خارج هذه الدنيا » ولبودلير قصيدة هى آية فى الابداع عنوانها « الرحيل » قص فيها قصة تلك النفس الظامئة أبدا ، ووصف جهوده للفرار من ذاته . فقد عاد الشاعر بالفن والجمال والطيب والموسيقا ، لانها على حد قوله « لقلوب أبناء آدم افيون الى » ولكن لم يجده عياده بها جميعا . فلبجأ الى الحب والدين ثم جرب كل الوسائل التى اهتدى اليها البشر لتنويع اللذة وارواء النفس ، فاذا بالسعادة فى مراحل هذه الهجرة الكبرى رغم بهجة الطريق ، سراب خادع لا يتلاشى فى أفق الا ليظهر فى افق أبعد فأبعد . وأخيرا عرف « الافيون العظيم » وله كتاب فى وصف الجنات ، لا جنات عدن ، بل « جناته المصطنعة » فقال لنفسه : اذا كان النعيم فى الموت ، فى الموت وحده فليكن المرحله الأخيرة يا نفس . . وهنا يلتقى بودلير وافيونه بالبوذيين و « نرفانا » هم لتمام كروية الارض . . . وان قوافل البشرية المتنقلة من أزل الآزال الى أبد الآباد ، فى سبلها المختلفة ، لتقف جميعا عند غاية واحدة مزدحمة على عتبة الباب المرصود ، حاسبة ان السعادة الكبرى والطمأنينة العظمى خلف الباب متسائلة فى حيرة ولهفة - ولكن من يا ترى ، يفك الرصد ؟

الأدب فى مدرسة الكشف

أكثر أدبائنا - ولا أغالى - حقيقون ان يكونوا كشافة قبل أن يصبحوا أدباء ، الكتاب منهم والشعراء . بل انى اذهب الى أبعد من هذا فأقول : من الواجب عليهم اذا ارادوا حقا ان يكونوا كتابا وشعراء أن يجتازوا أولا مدرسة الكشف ، فانهم فى هذه المدرسة قد يكتسبون الصفات والمزايا اللازمة لكل أهل الفنون ، أو ينمون هذه الصفات والمزايا ان كانت كامنة فيهم .

لو شئت يوما أن أتمثل الأديب فى بلادنا أو أن أتخيل نموذجا وسطا لأدبائنا ، لما قامت فى ذهنى الا صورة واحدة هى صورة رجل من ورق وحبر ، ولا نكاد نجد فرقا الا فى لون الحبر ونوع الورق .

من تحقيق قاتية دهم

فى مدرسة الكشف يتعلم الأديب - ان شاء الله أن الطبيعة والحياة والناس أشياء لها وجود حقيقى ، ولها قيمة فلا تعد العناية بها عبثا ولهوا وانفاقا للعمر على غير طائل . وفيها يتعلم أن الحياة فى الطبيعة ومع الناس (على الأقل بقدر ما يعيش فى الكتب) حياة جديدة بأن يحيها ، حسبها منها انها تحول دون مسخه رجلا قرطاسيا بل حسبها منها انه اذا لم يقدر له أن ينفع بأدبه فقد انتفع هو بعمره .

لا بأس .. لا بأس فى ان يظل « الأديب » رجلا من لحم

ودم .

كيف ينهض العرب ؟

عنوان كتاب في خمسة فصول ألفه أديب العرب عمر فاخوري في حدة حماسته للشورة على من ظلم الأمة والعروبة في عهد العثمانيين وحرّم المحكومين حريتهم وحقهم في الحياة اللائقة .

كتب الأديب البيروتي هذا المؤلف وهو يتدارس مع أنداده ورفاقه في الشورة أسباب النهضة العربية ورأيه فيها ، غير أن هذا الكتاب أو الكتيب القيم قد اختفى من بين أوراقه في تخوف أهله على حياته فبقى ضائعاً يتفقدته أخوانه وهم يتفقدون آثاره ويتناولونها بالدراسة والتحليل حتى ظهرت (مجلة الفكر الجديد) في بيروت - لبنان عام ١٩٦٨ وفي العدد الثاني منها نشر القسم الأول من هذا الكتاب المفقود الذي زعمت المجلة بأنها (عثرت عليه بعد جهد جهيد) (١) .

وبديهي وأنا أتتبع عمر فاخوري في حياته وآثاره أن أبادر الى هذه الصفحات فأقرأ ما جاء فيها متسائلة متأملة ، وتأتيني الاجابة من الاعماق بأن يتصدى أحد الناشرين العرب لطبع الكتاب (كيف ينهض العرب) وحينئذ يكون لكل حادث حديث ، فقد يتناوله النقد والتمحيص برأى جديد أو بنظرة طويلة فيما تناول من حياة العرب وأخبارهم

(١) الفكر الجديد ص ١٢ العدد ٣ حزيران ١٩٦٨ .

وأسباب نهضتهم بعد التخاذل والاضطراب الذى أدركهم
فى أعقاب الحكم العثمانى الذى أهمل شأنهم واستهان بقوتهم
وتراثهم ، فكان جزاؤه السخط والتمرد .

ولا ريب فى أن المستقصى لسيرة عمر فاخورى وتطور
تفكيره ومسيره يجد فى كتابه المفقود (كيف ينهض العرب)
مجالا للنقد والتفسير والتساؤل عما جاء فى محتواه وعن
طريقة الأداء التى أتقنها عمر فى نضج تعبيره وفيما أوتى
من بلاغة وجزالة ولم يكن هذا الأداء فى تأليف الكتاب ليدل
على صاحبه فى بواكير أدبه وتجاربه .

ومهما يكن الأمر فالكتاب أو الكتيب جدير باعادة
طبعه ونشره ليتسنى للقارئ والناقد الوقوف على ما جاء
فى محتواه ، فىرى بداية عمر فى أدبه ورسالته التحررية
وبواكير تعبيره .

وهذه سنطور من أحد فصوله تحت عنوان « الثورات
والثورة الفكرية »

ان أعظم عمل يقوم به المفكرون فى الأمة العربية أو
بالاخرى أول واجب عليهم هو أن يحددوا فيها ثورة فكرية
تدرجية تنتهى بتشكيل ديانة جديدة ، لا قيام لأبناء الضاد
الا بها هى « الجنسية العربية » ليصيروا مستعدين لتحمل
قسوة ناموس الحياة العام .

الحياة جهاد وقوة الحياة تكسب الحق فيها .

مؤلفات عمر فاخوري

- ١ - كيف ينهض العرب ؟ ١٩١٣
- ٢ - آراء غربية في مسائل شرقية ١٩٢٥
- ٣ - الباب المرصود ١٩٣٨
- ٤ - الفصول الأربعة ١٩٤١
- ٥ - لا هوادة ١٩٤٢
- ٦ - أديب في السوق ١٩٤٤
- ٧ - الحقيقة اللبنانية ١٩٤٤
- ٨ - حجر الزاوية ١٩٤٦

الترجمات

- ١ - حياة المهاتما غاندي ١٩٢٤
- ٢ - آراء أناتول فرانس ١٩٢٥
- ٣ - كرانكبييل ١٩٢٨
- ٤ - الابن الآخر ١٩٢٩

المصادر والمراجع

مؤلفات عمر فاخوري
ترجمات عمر فاخوري
مصادر الدراسة الأدبية - ليوسف أسعد داغر
جدد وقدماء - لمارون عبود
أعلام اللبنانيين - لمارون عبود
من تراث عمر فاخوري - لرضوان الشهبال
الشمالات - لصلاح اللبابيدي

الصحف والمجلات

جريدة الميزان
جريدة بيروت
جريدة الأحرار
مجلة الكشف
مجلة الأديب
مجلة المكشوف
مجلة الرسالة اللبنانية
مجلة الثقافة الوطنية
مجلة الطريق
مجلة الكاتب المصري
مجلة المقتطف

فهرس

الصفحة

الموضوع

الفصل الأول

٤	منبت عمر وأسره
١٢	ملاح من هيمته وخصاله
١٧	دراسه وثقافته

الفصل الثاني

٢٧	عمر فاخوري في عصره ووطنه
٤٠	مكانة عمر في الأدب والمجتمع
٤٩	في صحبة دأبة (أو صاحب عمر)

الفصل الثالث

٥٥	من الأدب الى السياسة
٦٨	النيابة الخائبة
٧٥	صداقة الجماهير

٨٢	كاتب المقال
٨٦	الناقد
٩٢	القصصى
١٠٠	الخطيب
١٠٥	ناثر لا شاعر

الفصل الخامس

١١٥	مقتطفات من أدب عمر فاخورى
١١٧	حنا الميت
١٢١	من مقدمة الشعر
١٢٣	فرنسا الحرة
١٢٥	رسالة لبنان
١٢٨	الأدب فى مدرسة الكشف
١٢٩	كيف ينهض العرب ؟
١٣١	مؤلفات الأديب عمر فاخورى

فهرس

الصفحة

الموضوع

الفصل الاول

٤	منبت عمر وأسره
١٢	ملاحج من هيمته وخصائه
١٧	دراسته وثقافته

الفصل الثاني

٢٧	عمر فاخوري في عصره ووطنه
٤٠	مكانة عمر في الأدب والمجتمع
٤٩	في صحبة دائبة (أو صاحب عمر)

الفصل الثالث

٥٥	من الأدب الى السياسة
٦٨	النيابة الخائبة
٧٥	صداقة الجماهير

٨٢	كاتب المقال
٨٦	النقاد
٩٢	القصصى
١٠٠	الخطيب
١٠٥	ناثر لا شاعر

الفصل الخامس

١١٥	مقتطفات من أدب عمر فاخورى
١١٧	حنا الميث
١٢١	من مقدمة الشعر
١٢٣	فرنسا الحرة
١٢٥	رسالة لبنان
١٢٨	الأدب فى مدرسة الكشف
١٢٩	كيف ينهض العرب ؟
١٣١	مؤلفات الأديب عمر فاخورى



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مركز تحقیق و تکلیف پیر علوم اسلامی

المطبعة الثقافية

رقم الابداع بدار الكتب ٢٠٨٥ / ١٩٧٠